ولادة الأشياء

ماري داريوسيك

ترجمة: كيتي سالم

شرقيات

المركز الفرنسي

ولادة الأشباح

دار شرقيات
للنشر والتوزيع

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

ولادة الأشباح Naissance des fantomes

لماري داريوسيك Marie Darrieussecq

P. L. O, 1987

ترجمة: د. كيتي سالم

© جميع حقوق النشر لهذه الترجمة العربية
"الكاملة" محفوظة لدار شرقيات ٢٠٠١

دار شرقيات
للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي، ١١١١١ باب اللوق ، القاهرة
ت : ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨

لوحة الغلاف: أ. ر. بينك

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع

CFCC

المركز الفرنسي
للثقافة والتعاون العلمي
قسم الترجمة والنشر

ماري داريوسيك

ولادة الأشباح

ترجمة : د. كيتي سالم

دار شرقيات
للنشر والتوزيع

كـــانت تجيـــل بصرهـــا بحثـــا" عـــن وســـيلة للهرب، وتتساءل إن كـــان بإمكانـــها الابتعـــاد دون أن يشعر أحد بذلك ، حيـــن لمحـــت، فـــي الأجواء، رؤية غريبة ؛ حيرتها هـــذه الرؤيـــة لأول وهلة وأقلقتـــها، ولكـــن بعـــد أن نظـــرت إليها بإمعان، دقيقة أو دقيقتيـــن، أدركـــت أنـــها ابتسامة، فقالت في ذاتها : " إنه قـــط شيشـــير: أصبح الآن معي من أتحدث إليـــه " .

لويس كارول

(١)

اختفى زوجي. عاد من عمله، أسند محفظته على الحائط، سألني إن كنت قد اشتريت خبزا ". كانت الساعة تقترب من السابعة والنصف.

هل اختفى زوجي لأنه، ذاك المساء، بعد سنوات من إهمالي له، كان تعبا "وقد أرهقه عمل يومه، فمل فجأة من التزامه اليوم تلو اليوم النزول ثانية طوابق منزلنا الخمسة بحثا "عن الخبز؟ حاولت أن أساعد المحققين: هل كان ذاك اليوم شأن الأيام الأخرى ؟ لقد فحصنا بإمعان ملفات الحاسب جميعا" تلك التي راجعها زوجي منذ الصباح. لم يبع شيئاً يُذكر كما لم يستلم شيئا" مميزاً، لقد أرى ثلاث شقق للزبائن، أكل ظهراً شطيرة اشتراها في زاوية الشارع كما يفعل كل يوم. لم يلاحظ زائرو الشقق (زوجان شابان، وزوجان في متوسط العمر، ورجل مطلّق أشيب الشعر، قابلهم المحققون) أية بادرة تلفت النظر ما

عدا سخّان ماء تلف وتفاصيل أخرى عن الشقق، لقد أتوا لهذا الغرض، حتى إنهم لم يعودوا يتذكرون ملامح زوجي.

لم يكن باستطاعتي، بالطبع، أن أقدم كشفاً مفصلاً يشرح كيف يمضي زوجي وقته ساعة ساعة، لذا أشار عليّ المحققون أن أبحث في مراسلاته، وأفتش في دروج مكتبه وفي جيوب ملابسه، وأن أدقق آخر كشف لقائمة هاتفه المهني، لأنه ليس بإمكانهم أن يقوموا بهذا العمل ذلك أنه يختفي كل يوم في البلد مائتا شخص، ونادراً ما يجدونهم في الجزر برفقة حسناوات شقراوات(وكأنني لست، أنا، حسناء شقراء)، وآخرون يجتازون الحدود ومن الحكمة والحالة هذه، التخلي عن أي أمل، وأخيراً بعضهم يلقون بأنفسهم في البحر، فتجرفهم المياه على الشواطئ وقد انتفخت جثثهم وأكلت براغيث البحر أعينهم وألسنتهم، واحتشد الحلزون والديدان في شرجهم، لذا من الأفضل تجنب هذا النوع من اللقاءات. وقد سألني المحققون إن كان زوجي سوداوي الطبع، كئيب المزاج.

لم اتصل بالمحققين فور اختفائه. استغرق الأمر مني بعض الوقت، قبل أن أدرك أن زوجي قد اختفى. غالباً ما كنت أستفيد من غيابه لشراء الخبز كي أخابر أمي. كنت أغلق سماعة الهاتف حالما أسمع وقع خطاه في الطابق الرابع. ذاك اليوم، مكثنا منهمكتين، أنا وأمي، أكثر من ربع ساعة على الهاتف، هي في ثرثرتها، وأنا أقاطعها باستمرار لأذكرها أن عليّ أن أتركها. انتابني إحساس، غامض بادئ الأمر، أن حديثها قد استغرق وقتاً أطول من المعتاد. نظرت إلى الشارع، لأرى إن

كان زوجي لايجتازه ؛ أصخت السمع، لأصغي إلى وقع أقدامه على السلم ؛ فكان أن أقفلت أمي الخط، وهي تتهمني، كما تفعل دائما"، بأني لا أعيرها أي اهتمام، في حين كنت قد انحنيت فقط من النافذة وقد تملكتني للتوّ رغبة وهي أن أستسلم لهذه المهمة: أن أترقب بهدوء ظهور زوجي .

كانت الشمس قد شارفت على الغروب ورحت أتنفس وسط الهواء العليل. كان يندر، في ساعة كهذه من النهار، أن أمكث هكذا بلا عمل أنظر من النافذة ؛ كنت أدرك، عامة، حوالي السابعة والربع، أن العشاء غير معدٍ، فأنزل مهرولة لأشتري ما نأكل (وقد نسيت الخبز: كما أن مخزن البقالة لا يحوي خبزا"، ويقع أقرب مخبز في الطرف الآخر من الشارع العريض، أي أن اجتياز الشارع يستغرق وقتا" طويلا") . كانت أسطح المنازل قد احمرت، وتوحدت فوضى الضاحية هذه، فكنا نجهل أي لون يهيمن، ألون صفائح الأردواز أم الآجر، أم القرميد أم الحجر الكلسي، وبدت هذه الفوضى في الغروب أقرب إلى الجمال. ولقد حدث في ذاك المساء، ولم أكن أعرف بعد أي مساء حاسم سيكون هذا المساء بالنسبة إليّ، أن انتبهت إلى حضور طيور السّمان فوق أزهار البيلسان، كانت هذه الطيور تشكل فواصل في سماء الشتاء الفسيحة جدا". بدا لي كل شيء أصغر من المألوف، ويمكن العيش معه، وحسب قياسي، أصغر بشكل زائف ويمكن العيش معه بشكل مخادع وحسب قياسي لأني أستطيع أن أتابع طيران السمان المتعرج في السماء من طرف إلى آخر. كان سحاب النهار يتلاشى في الأفق،

فتظهر بنايات الضواحي المقابلة أوضح للعيان، وفي الشمال كانت المعالم الأثرية للعاصمة تبرز خطوطها وقد ازدادت وضوحا في أسفل السماء، كأنها توقع في آخر الصفحة، أما من جهة البحر، فلقد ظهرت أراضي الحدود الممتدة والخالية. كانت الظلال تنتشر، ويتساقط الغبار ثانية تحت أقدام المشاة ، فتتكوم الأشياء على الأرض وتشغل السماء الحيز كاملا". كنت أقول في نفسي إن وضعي لا بأس به، هنا، أنتظر زوجي في هواء المساء، ويستحسن في المستقبل أن أتمتع هكذا بوقتي، ولا بد أن يكون المخبز قد أغلق، مما اضطر زوجي أن يبحث عن مخبز آخر يقع أبعد من الأول، وقد توقف، هو أيضا"، ليستنشق الهواء.

لامست الشمس سطح البنايات، واسودت الضاحية أمام السماء، في حين كانت الشمس هناك وقد امتدت وراء الأفق، تدفئ وجهي بعذوبة، فتلون لمستها وجنتي بالاحمرار. كنت أرى رأس أنفي منشطرا" وقد راح يأخذ اتجاهات متعارضة تتفق ورؤيتي إلى الجنوب أو إلى الشمال، وكذلك مع شبكة رموشي المهتزة جدا" في النور؛ كنت أحس أني قد أصبحت شيئا" ضخما" وحارا" يهتز. ذاك المساء ، حدث هذا للمرة الأخيرة، على ما أذكر، نجحت أن أشعر بذاتي وحدة كاملة، ملأى ومضغوطة ؛ ثم انطلقت مثل الكواكب، وقد تبخرت بعيدا" جدا" مثل النجوم الحمراء. انسابت الشمس بين أجفاني، لم يبقَ إلا خط ضوء دقيق ،انطفأ فجأة وأصبح أنفي كتلة صغيرة بيضاء وضعت قريبا" جدا" تحت عيني.

دب البرد في وجنتيّ ، وشعرت بأني جائعة . أردت أن أبتعد عن النافذة لأرى الساعة، ، ولكني بقيت في مكاني ، لأستمر في الانتظار قليلا" ، لا أريد أن أقبل أن تأخر زوجي قد أصبح أمرا" تشتد غرابته ، وخارج ذاتي ، فيحسب بالدقائق وبأرباع الساعة . تركت الغضب يكبر في أعماقي ، شأنه شأن آخر قبس شمس أشعلته ثانية بين يديّ كي لا أبقى وحيدة على النافذة وسط البرد. أذكيت غضبي ، وكذلك جوعي ، وتحديت نفسي كي لا آكل قطعة من الجبن ، وشعرت بالزهو من أن أترك جوعي يزداد وغضبي يحتد حتى أسقط ذلك على زوجي : من أخره في شوارع الضاحية ، أي جار بليد وثرثار ، أية تسلية بائسة أخرته ثانية على أرصفة الطرقات فراح يتسكع بينما أنا أموت جوعا" ؟ كانت أزهار البيلسان قد بهت لونها ، وبعض أوراقها الأخيرة كانت تشع ثم كبت فجأة ، كما الشمس هذا المساء، بعد أن كانت قرصا" أحمر برز منفصلا" عن سماء بيضاء ، لم يكن منها إلا أن هوت إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية . كانت طيور السمان تتابع طيرانها المتعرج ، وبعضها يحاذي نافذتي ، كانت أجنحتها زرقاء ، وعنقها قد انتفخ ، ولم يكن جسمها إلآ صفارة امتلأت بالهواء ، كأن جسمها جناحان خاويان حول صياح .

راح الجو يثقل شيئا" فشيئا" . فكان المرء يشعر تحت الدفء بلفح باردٍ ، كأنه إحدى مزايا السكون الحسية . كانت طيور السمان تنقض على دعاسيق نباتات البيلسان عندي ، أدخلت أحواض الزرع هذه ، إنه عمل يشغل حيزا" من وقتي

المسائي ، وضعتها هنـــاك ، عنـــد قدمـــيَّ ، تحـــت النـــافذة . كـــان يهمني ألا أترك النافذة ، ربمـــا لـــم يكـــن انتظـــاري لزوجـــي قـــد استغرق إلآ وقت استراحة أنظر خلالها إلـــى المدينـــة كمـــا تفعـــل أية ربة منزل تســـتريح مســـاء" بتدخيـــن ســـيجارة ، قبـــل العشـــاء وهي تتنـــهد .

توقفت الطيور عن الصياح ، وهـــوت الشـــمس بعيـــدا" جـــدا" فلم تعد 'ترى. انتثر النور مرتيـــن أو ثلاثـــا" علـــى أجنحتـــها ، ثـــم سادت العتمة ، خـــلا الـــهواء مـــن العصـــافير، وقـــد كـــانت مثـــل الزوابع في مغسل ضخمٍ . بقيت وحدي أهيـــم فـــي المســـاء ، علـــى سماءٍ لطخت أطرافـــها.

على نور البراد المفتوح ، رحت أشتم زوجـــي . كـــان هنـــاك قرصا بندورة وقطعة صغيرة من الجبـــن ، ممـــا يكفـــي لتحضـــير طبق معكرونة . حين يعود ســـيجد فـــي انتظـــاره الطعـــام جـــاهزا"، معدا"، منتقما"، كما ســـيجد اللـــوم هلاميـــا" مصقعـــا" فـــي صحـــون باردة . كان آخر شعاع أحمر ينساب فوق خشـــب المطبـــخ ، فيبـــدو حوض غسل الأواني باهت اللون ، وســـائل الغســـيل كثيفـــا" غامقـــا" في زجاجته التي يتفق شكلها وقبضة اليـــد . نظـــرت إلـــى الســـاعة على الفرن الكهربائي الـــذي يمكـــن برمجتـــه ، أفلـــتَ فجـــأة بـــاب البراد ، وأمسكت بالـــهاتف .

لمْ أتصل فورا" بالشرطة. اتصلت بجاكلين . لـــم أحدثـــها عـــن تأخير زوجي، كنت أريد أن أعـــرف فقـــط (يـــا للســـذاجة) إن لـــم يكن زوجي عندها صدفة . إن ســـماع جـــاكلين، جـــاكلين وحدهـــا، وصراخ الأولاد، وطقطقة الماء في الحمام، كـــل هـــذا كـــان يحـــدث

أحسن الأثر في نفسي، فثبات جاكلين وأنا في بدء قلقي، والحيز الذي تشغله وتبرز منه يشبه نشاط السنونو. ففي عالم جاكلين لا يمكن أن يختفي أحد هكذا ، بذهابه لشراء الخبز. قالت لي: إني مشغولة جدا" وطلبت مني أن أكلمها فيما بعد. قلت مسرعة: ماذا تطبخين ، وإثر سماعي صوتها وقد نفد صبرها، كنت أستطيع أن أشتم طبق المعجنات الذي تعبق رائحته الذكية من الفرن ، وأرى الفوضى البهيجة تعم شقتها ، والأولاد يغطون بفقاعات الصابون السجاد الأكثر طراوة من سجاد بيتي. انتظري لحظة ، جاكلين، ألا 'تبث هذا المساء، على شاشة التلفزيون، مباراة في كرة القدم؟ أية مباراة في كرة قدم. المباراة التي كان الرجلان سيشاهدانها, عما تتكلمين . تركني هذا الحوار الهاتفي القصير أتأرجح بين وضعين يصعب احتمالهما . لا شك أن حضور صديقتي بكلماتها اللاذعة (والتي لم يكن لديها الوقت للمكالمات الهاتفية أو لرؤية البرامج التي تبثها الأقمار الاصطناعية ، لاشيء يمكن أن يفكك جاكلين فصوتها على الهاتف يلخصها بأمانة) ، قد طمأنني ، ولكنه أشعرني بوحدتي كذلك ، كنت على شاطئ بحر فسيح أرى جاكلين تبتعد ، وهي تلوح بيدها شاردة .

فتحت التلفزيون ، كانت نشرة أخبار الساعة الثامنة مساء" قد انتهت ، وبدا لي أن المذيع من لحظة إلى اخرى سيأخذ مظهرا" حزينا" ليعلن اختفاء زوجي ، وقد قلبته سيارة نقل كبيرة وهي تعود مسرعة جدا" إلى المستودع ، أو صدمته دراجة نارية يركبها ناقل الأطعمة الجاهزة إلى البيوت ، أو سحقته

سيارة تكسي مستعجلة في آخر جولة تقوم بها . كانت الشوارع مقفرة ؛ بدأت الدعايات تتتالى في التلفزيون ولم أعد أسمع أي صوت من الخارج . استطعت آن أغلق التلفزيون ، اختفت الأصوات ، وللمرة الأولى ذاك المساء أحسست بموجة هلع تجتاحني ، فشراء خبز لا يستغرق ساعة ، كما أن زوجي ، الذي يعي دوما" مسؤولياته، لا يمكن أن يدعني أنتظر هكذا دون إخطاري إذا ما توقف مضطرا" ليشرب قدحا" في مكان ما.

بدأت القيام بجولة منتظمة في الحي : سلكت الشارع العريض حتى وصلت إلى المخبز ، ثم اجتزت الشارع ، نظرت بإمعان إلى جداول أوقات الدوام المعلقة كما ألقيت نظرة سريعة عبر الستارة . لم يكن زوجي هناك . تابعت السير حتى المخبز التالي ، كانت واجهته فخمة ، زينت بحصاد برِزوا من أفق مليء بالقمح على لافتة كتبت بأحرف تحاكي الطراز القديم ، لم يكن زوجي يتردد على هذا المخبز البتة . ومع ذلك وقفت على أطراف قدمي لأنظر إلى الداخل ؛ ولكن من خلال الشبكة الحديدية الرقيقة التي تشبه طواحين الهواء ، لم يكن هناك إلا الخبز اليابس .

كان هناك مخبز آخر في مفرق الطرق ، وكان كذلك خاويا" مظلما". أما الشوارع التالية فلم يكن زوجي يسلكها البتة. راح قلبي يدق بشدة ، أين أبحث في غير المخابز ، إن عجزي أمام الشوارع المقفرة قد أنهك ساقي ، فانفصل جسمي عني ليمتلئ بسائل غريب كأنه صار حوضا" من الطحين أو من الدموع .

عدت أدراجي . كانت تكفي حركة في الأغصان ، أو اهتزاز نور المصابيح ، لكي ألاحظ كلينا ، نحن الاثنين ونحن نسير في الشوارع ، في أمسية كهذه الأمسيات حيث كان ظلنا المزدوج يتقدمنا ، أن السماء شيء رائع ولا تنتهي وراء الأسطح . أدى بي السير إلى الساحة ، كانت ساعة دار البلدية متعطلة ، راحت عيناي تنظران بلا تحديد ، كأني سأرى فجأة كلينا نحن الاثنين ، وقد جلسنا جنبا" إلى جنب على حافة الينبوع، وعيوننا تهيم في الفضاء وفي السماء . بللت أصابعي . تحولت طقطقة الماء إلى خشخشة على عوارض بلاط الحوض، وقد بدت تسبح بين ماءين . لا شك أننا ، بعد عدة دقائق ، سنضحك ارتياحا" (كان هذا سوء تفاهمٍ ، انزلاقا" في الزمن ــ المكان ، فقدان ذاكرة خفيفا" جدا" ولمدة قصيرة جدا" ما حدث لزوجي ، إنهائه يهيم الآن على بعد مائة متر مني ، في أعالي السماء ، راح طائران من السمان وقد أصابهما الأرق يضحكان من ضياعنا في تقطيعات الشوارع ، وكذلك الأردواز والآجر والقرميد والحجر الكلسي) . بقيت هناك على حافة الينبوع ، و قد شحذ شعوري كأنه نصل ولكنه غير مصوبٍ نحو هدفٍ ، إنه هوة ، توتر أعصاب خاوٍ . كانت كتلة سائلة تصعد إلى صدري، فتنتفخ فوق عظامه وترغب في أن تفجر أضلاعي ، فإذا ما تحركت انسكبت' كبرميل . تجمعت الساحة حولي ، وراح بلاط الحوض يعوم على السطح ، وكانت المصابيح ترسم حصى حمراء من الطريق المعبد . انتصبت واقفة . طقطق السكون كما الجمرة . تأرجحت أعماق الساحة ، وراح كل شيء يرتجف كأنه تحت ضربة صنجٍ ، واهتز الهواء على الأرض .

كنت أرى بريقا" ينزلق على الواجهة ، كأنه خيال وحيد ظهر في انعكاس .

راح الينبوع يسيل ورائي فاستيقظت فجأة ، كان زوجان من الجيران يمرّان ، فألقيا السلام عليّ. تذكرهما جسمي وحده . لفظت " مساء الخير " في الصمت وانطوت الكلمة كجناحين أسودين ، سمعت خطواتي ترن .

قرعت باب بائعة الخبز. فتحت نافذة ، وظهر وجهها ، تحيطه هالة زرقاء عكسها ضوء التلفزيون . أحسست أنني بلهاء. سألتها : هل تتذكرين رجلا" طويل القامة إلى حد ما ، يلبس ثيابا" قاتمة ، قد جاء يبتاع خبزا" في تمام الساعة السابعة والنصف ؟ نظرت بائعة الخبز إليّ فزعة . احتجت قائلة : إن كان عليّ أن أتذكر كل زبائني ! ... ابتعدت وأنا أفكر مليا" في جوابها . لم تكن عندي أية رغبة في أن أروي قصتي . لم أكن أرغب في أن ألفظ هذه الكلمات ، وهي أن زوجي لم يعد إلى البيت .

لم أكن أستطيع أن أفترض زوجي عند امرأة أخرى بينما أنا أطوف الشوارع هائمة أبحث عنه ؛ لم يكن في استطاعتي أن أفكر في ذلك ، ليس لأني اكتسبت إخلاصه ، لكن لأن زوجي كان إنسانا" منطقيا" منسجما" مع نفسه ، لا يتركني البتة هكذا وحيدة أقلق : وكان يفضل أن يتصل بي هاتفيا" ليخبرني أنه في طريقه إلى المخبز قد فكر بملف مستعجل ، وأنه رجع إلى المكتب ، وسيعود في ساعة متأخرة جدا" . في مكتبه ، كان الهاتف يرن بلا مجيب . ومع ذلك كنت أراه ، بشكل واضح

ومؤلم ، كان هناك ، وقد انحنى على الحاسب ، يداعب فأرته، ونبتة (اليكّة) التي أهديتها له في عيد ميلاده تنمو في الجو المثقل ، والكرسي يئن أنينا" خفيفا" تحت ثقله ، كان هذا يثيرني دائما" ،. هذا الكرسي الأبله يتلوى تحت الوزن الفعلي لزوجي الضخم . ضغطت على زر " كرر" في الهاتف ، عادت أجراس الهاتف إلى الرنين، آليا" ، كأنها نوّمت مغناطيسيا"، فكان كل جرس يغرس إبرة ساحر في عمودي الفقري فأغلقت عينيي إثر ألم غريب متباعد و رتيب .

ألصقت جبيني على الزجاج ، و ذراعاي تتأرجحان والسماعة في يدي . كنت أسمع عن بعد غياب زوجي يرتسم نقطا" من الرنين . كانت هذه الأجراس تدق عبثا" في كل مكان على ساحة الشارع المبلطة ، في كل مكان فوق الضاحية حتى البحر وحتى المعالم الأثرية. راحت قطرات تنساب تحت جبيني الملتصق بالنافذة ؛ وفجأة أدركت أن هذا قد حدث فعلا"، وأني لم أكن أحلم ، وأن زوجي لم يعد هذا المساء بعد أن ذهب ليشتري خبزا" ، وأن هذا كان الواقع ، وأن هذا كان موجودا" . وفي الأيام الآتية ، كان علي أن أختبر باستمرار هذه الصدمة في القلب ، لقد انفلت فجأة الأدرينالين الذي تفرزه غدة الكظر، فصعدت موجة كهربائية لتتوقف في أطراف أصابعي و تشل حنجرتي ، و تجمد أعضائي وتتوقف لزجة في تشعبات قصبات صدري العميقة ؛ سيصبح الأدرينالين ، في الأيام الآتية ، في شراييني وفي عضلاتي، سمة الواقع ، ووسيلته وقوامه .

(٢)

كنت أرتجف وأنا جالسة على كرسيٍ صغير في المطبخ ، إنه أحد الكراسي الصغيرة ذات اللون الأصفر الفاقع التي كنا قد اشتريناها إثر إقامتنا في هذه الشقة ، إني أتذكر كلينا نناقش اللون ، كان زوجي يفضلها بلون الخشب الطبيعي ، تمسكت بأرجل الكرسي من الأسفل ، وقد جلست في المطبخ ، بوضعية لا معنى لها ؛ كما لو كان زوجي سيعود الآن، ليكرر على مسمعي أنه كان من الأفضل لو اشتريناها بلون الخشب الطبيعي، كان يبدي زوجي أحيانا" أسفا" من هذا النوع . كنت أرى نفسي معه في المخزن الكبير، وكان الواقع هذا أيضا"، سطحية الواقع الناعمة الملمس ، فرشه بأثاث عملي وبثمن مقبول . رحت أمرر أصابعي على الطاولة ، كنت شبه مشلولة وقد 'صدمت بواقعين مختلفين تمام الاختلاف، يستحيل تفسير اختلافهما ألا وهما غياب زوجي والكراسي الصغيرة الصفراء ، رحت ألمس بأصابعي الطاولة وقد كان من أبسط ما يمكن ، ومن الطبيعي جدا" ، أن أجد بقايا طعامنا ، فتات الواقع ، الواقع الذي نسكنه ، يكون فيه زوجي قد عاد بكل بساطة يحمل الخبز.

أصبح الليل الآن دامس السواد . نهضت واقفة . ربما يخف الخواء في صدري إذا ما قمت بحركة ، تلاشى ثقل هذا الفراغ الغريب ، ثم عاد من جديد ، أخذ مكانه ، وقد تمركز بين عظامي تماما" ، يحفر في أعماق صدري ، بشكل مؤلم جدا" قد يدفعني أن أبصق دما". التصق جبيني ثانية بزجاج النافذة .

راح المطر يسقط رذاذا" نديا" ليصبح كل شيء ضبابيا" لامعا" ، فخرج كل جدار عن شكله الخاص به ، وبدت الأسطح غير واضحةٍ للعيان ، كما أخفى الضباب الحشرات . حينئذٍ رأيت زوجي يعود ، بخطواته الكبيرة والمتعرجة قليلا"، بمعطفه ، بكتفيه المقوستين ، وبمظهره الطويل . نزلت السلم وأنا أركض. كان الشارع قفرا". سرت بضع خطوات في اتجاه ، ثم في اتجاه آخر . وقفت أصيخ السمع . رأيته عن بعد ، أمامي ، وقد تركت قدماه خطوطا"على أرض الشارع الرطبة ؛ ركضت ، كان يدير ظهره لي ، ناديته . نظر رجل إليّ باستغراب . إنه لم يكن زوجي . على كل حال ، لم يكن هذا معطفه على الإطلاق.

صعدت ثانية إلى البيت وأمسكت سماعة الهاتف ، بدا لي كأن مطلع شخصٍ سيحدثني، مظهر صغير جدا" من زوجي . أدرت رقم حماتي . كانت حماتي قد أصيبت بالمرض فجأة ، وكانت بائعة الخبز قد أعلمت زوجي بذلك ، فذعر ولم يفكر بإعلامي ، ربما كان في المستشفى قرب سريرها . أجابني صوت ثقيل يتكلم بصعوبة .أدركت أن الوقت متأخر حقا". قلت اسمي . سمعت صرير مزلاج . ضغطت على زر "كرر" . رددت اسمي ثانية بصوت مرح ، وأنا أعتذر بسبب الوقت المتأخر .

لم أعد أسمع سوى تنفسٍ خشنٍ ، نبضٍ يكاد يلمس يحدثه دفق دماغي ، إنه الشكل الذي يأخذه ، بين شخصين يتواصلان في الظلام ، جهد ما ولربما تردد الذاكرة . حدث نوع من الانقطاع في هذه اللحظة بيني وبين حماتي ، إنه نوع من

الانزلاق وجب عليّ فيه أن أتصرف ، أن أتمسك بشيء ما ، أن أتفوه بإحدى هذه الجمل التي تفتقر دوما" إلى الكلمات : لم أجد شيئا" أجيب به ، ولكني وجدت جملة يستحيل فهمها ، تمت إلى الميتافيزيقيا ، جملة تدفع إلى الوجود . كيف أقول لها إن زوجي، ابنها ، قد اختفى ؟ حدث أن بيني وبين حماتي في هذه اللحظة ، لحظة قصيرة جدا" قشطها الليل ، قد عبر حلم كما تمر الملائكة على حد قول المثل. ففي السكون ، كنت منسية مثل اسم على رأس اللسان ؛ كان لدى حماتي شعور بوجودي (في الحقيقة كان هذا شعورها دوما" : كنت موجودة ، كنت زوجة ابنها)، على كل حال كان هذا الإحساس كافيا" ليجعل مني كنتها؛ كانت تتذكر شعرا" أشقر يتدفق وطابقا" خامسا" اكتظ بالكتب ولحظة خاطفة في دار الحكومة ، حيث قال ابنها نعم لهذه الكتب ولهذه الشقرة.

لكني أحسست الحلم يختفي دون أن أستطيع أن أمسك به، دون أن أستطيع أن أقول الجملة التي تبقيه بيننا، وتجعلنا، بقوة، حليفتين. استمرت أصواتنا المتصلة من هاتف إلى هاتف تصعد عبر الفضاء لتقفز على صفائح الأقمار الصناعية وترتد بسرعة فائقة حتى إنه كان بودي أن تسبقني عبارتي التي لم ألفظها، أو تؤلفها شبكة الهاتف بدوني فتتردد مدوية، في الفراغ بين النجوم، إلى أن تجمعنا نهائيا". هناك سمعت، حيث يجيب على الصمت المريب في طرف الخط، ما يشبه نفحة جناح مترنح ، ثمة شيء كان يهرب ، واستطاع الطيران بتثاقل.

تهاويت بين الأقمار الصناعية ، أسقط من تلقاء نفسي في الظلام ، أفلتني الثقل ، أجل أفلتتني جاذبية حماتي الأرضية العظيمة ، أفلتتني الذبذبات التي كانت تربطها بابنها . ومع ذلك، دون أن نستطيع التلاقي، كنا كلانا ، من الطرف الآخر لدائرة الرماد هذه التي التف حولها الأحياء الذين ما زالوا بعد معافين وقد أحاطوا بمصاصي الدماء و بالمؤذيات و بالذكريات المؤلمة. ففي الفراغ الهائل الذي انفتح بيننا، همست بكلمتين قبل أن أغلق الخط ، اعذريني .

في ليالي الأرق، حين كان يبدو لي جسم زوجي الضخم وهو نائم كجزيرة وسط السرير الشاسع، كنت أرى الأثاث يتحرك، وكنت أتيه من شدة ما أحدق في الظلام؛ حينئذ كنت ألتصق به (لم يبد ' لي شيء على الإطلاق أكثر يسرا" على غموضه، ومألوفا "ومحسوسا" من جسم زوجي الضخم والنائم) . أضأت الأنوار كلها. أدرت رقم الطوارئ ، وانتظرت طويلا"، وأنا أقاوم كي لا أشعر وأنا وحدي بأني أكثر جنونا" مما كنت عليه فعلا"، معكم الشرطة على الهاتف ، ابقوا على الخط . بعد ذلك ، وبصوت ينبض بالحياة، استطعت أن أشرح ما حدث معي بكلمات بسيطة واضحة ، مضى أكثر من خمس ساعات و زوجي لم يعد ، كان الواقع جليا"، والمهلة كافية . لقد أبدوا اهتماما" بحالتي . سجلوا اسمي، وطلبوا مني أن أتصل بهم ثانية غدا" إن كنت لا أزال بلا خبر عنه، كان الصوت مهذبا" ، لم يلمّحوا بشيء، وآثروا أن يحتفظوا لأنفسهم بإحصاءاتهم عن الخيانات الزوجية .

فتحت التلفزيون عاليا"، كان هناك نقاش بين مرشحين للانتخابات الآتية ، مناقشة 'تبث على الهواء مباشرة ؛ انتابني شعور سخيف وهو إذا ما ألمّ بي حدث ما (كأن يفتح الباب على مصراعيه و يحضر لي خاطفو زوجي خنصره وقد لف بورق جرائد) ، أستطيع أن أستغيث دائما" ، فيهب المرشحان وبصوت واحد يطلبان عمل شيء ما من أجلي . مشيت في الشقة . ما زلت أسمع داخل غرفة نومي أصواتهما ، كانا يتحدثان عن أشياء واقعية ، عن أرقام ، كان الصحفيون يطلبون منهما وقائع ، وكان هذا ينشطني . ابتسمت وأنا أتذكر زوجي صباحا" أيام الانتخاب ، عوالمنا الجديدة حين تناول فطورنا ، احتفالاتنا ، أنا وهو ، في المطبخ ، في حين كانت قدماه العاريتان تدق بعصبية رجل الكرسي الصغير وقد انتصبت رقبته ، زوجي ذاته، سينتخب وهو يحتسي بحماس كأس الشوكولا الحارة ، كان ينهض ، فأتبعه ، ونخرج ، متأنقين، فنجتاز شوارع الضاحية ، ونحيي سكان الحي ، كان زوجي يستنتج من طريقة جارتنا وحدها في ترتيب زهر (الجيرانيوم) أنها لن تنتخب من ننتخب . كان يدخل إلى الغرفة الانتخابية المنفردة و (كنت واثقة دون أن يكون لدي أية براهين) أنه في آخر لحظة، إثر ردة لا إرادية ، كان نوع من الحس السليم القديم والموروث عن أمه قد سيطر عليه : إن زوجي وقد تأكد أن الستار مسدل تماما"، وأنه بالرغم من طول قامته ، لن تخونه التجاعيد العلوية لجبينه المنافق من فوق قضيب الستار ، دس في المغلف القائمة الرديئة ، ضاربا" عرض الحائط باندفاعنا ، وقد أعطى موافقة تامة على الوضع الراهن . بدت صورة

التلفزيون الزرقاء تنبثق خارج إطاره وترشح ماء" في الهواء ، وقد علقت في الفضاء مثل ستار الحمّام. ألقيت بنفسي على الأريكة ، أحطت وسادة بذراعيّ وخبأت فيها رأسي ، كانت تنبثق منها رائحة الغبار و الخشونة ، شعرت فجأة أننا قد لا نبني معا" بعد الآن عالمنا هذا المؤلف من وجبات فطورنا ، وأنني منذ الآن قد أنتخب وحدي وقد تركني أجهل أبدا" مضمون مغلف انتخابه ، ولربما لن أستطيع بعد الآن ، أن أشك بزوجي الخائن ، ولا أن أراقبه ولا أن أكشف تناقضاته .

في الأيام التالية والأسابيع المقبلة ، سأتحقق ، بملل يزداد يوما" بعد يومٍ ، أن نمط حياتي سيكون من الآن فصاعدا" على هذا النحو ، متعاقبا" وشاقا": أحلامي المألوفة ، وذكريات حياتنا المشتركة ، قد انمحت وتلاشت ، وقد مسحها بطلقات رتيبة بارود مدفع هذه الحقيقة المحسوسة : ألا وهي غياب زوجي .

في هذه الليلة الأولى ، استطعت أن أتدرب بشكل كافٍ كي أقوم بتصرفاتي اليومية (وكأنهم قد نجحوا في إعادة زوجي إليّ: كنت أشاركه وحده هذه التصرفات) . نظفت أسناني بالفرشاة ،وأنا أحاول ألا أنظر إلى الفرشاة الثانية ، الزرقاء المتآكلة . كنت عاجزة، خلال حفلة لعبنا فيها ، أن أذكر لون فرشاة أسنانه ، خجلت من ذلك وكأنه نوع من عدم الاهتمام بزوجي ، و من ضيقنا المشترك ، بدا لنا أننا قد أعطينا لأصدقائنا دليلا" على فتور حبنا) ، كما لو كنا قد وقعنا في فخ أوحت به الطرق البوليسية للكشف عن الزواجات الشكلية ،

كان قد حدث ذلك أيضا" ، يوم زواجي ، أحسست وأنا في بذلتي البيضاء البسيطة،

ما يمكن أن يلبس في الأيام العادية بعد أن تنزع الأشرطة عنها ، أن الأنظار المليئة بالشك قد صوبت نحوي ، ليس لأن لبس الأبيض يستلزم أن تكون الفتاة عذراء ،ذلك أن أسرتينا كانتا متحررتين وقد تجاوزتا منذ زمن طويل هذه العادات ، ولكن بدا لي أن الناس يتساءلون كيف استطعت أنا المخادعة المتحذلقة ، ذات الكلام الغريب ، والنظرة التائهة ، والشعر الخفيف ، أن أقنع رجلا" مثل زوجي ، وهو الإنسان الشريف ، والذي يعي مسؤولياته والميسور ماليا" أن يتخذني زوجة له ، هو الذي لم يكن يجهل (لا أحد كان يجهل ذلك) أني سأمضي وقتي في البيت أدرس متكاسلة ، نادرا" ما أنظف المنزل ، والأندر من ذلك أن أعد وجبات خفيفة . كنت أشعر في أعمق عضلاتي ، وقد امتلأ فمي بمعجون الأسنان ، باندفاع يقطر حرمانا" بأن ألقي بنفسي على عنقه ، وأن أطلب منه مسامحتي على تقصيري كله .

خطر لي أن أطفئ النور دون أن أتفحص كما أفعل عادة حفر التجاعيد في وجهي ، ولا أن أطلي وجهي بمرهم ليلي ، إلاّ أن فكرتين متلازمتين قد أوقفتاني ، الأولى هي أن من البديهي ظهور زوجي ثانية منذ الغد ، وأن كل شيء سيعود إلى مجراه، لقد أصابته نوبة من الجنون فأبحر إلى الجزر ثم عاد وهو يسبح ، وقد استرجع كامل وعيه ؛ والخاطرة الثانية هي

كبريائي ، و على كل حال إني أعتني بجمالي كل مساء وكذلك كل صباح من أجل نفسي .

حين خرجت من الحمام شعرت بتحسن خفيف . ولكني ما إن رأيت غرفة الجلوس مقفرة ، والتلفزيون مفتوحا" ـ يرسل ضوءا" أخضر على بساط الغرفة ، و كان يبث فلما" وثائقيا" عن منطقة الأمازون ـ ، حتى تساءلت ثانية كيف أسكن هذه الشقة الخالية ، ولم أعد أعرف ، حقا" ، إن كنت أنتظر زوجي ، أم أن هذا الانتظار قد تحول إلى شيء آخر ، إلى حالة عامة ، إلى مرض . لم أعد أشعر بشيء ، مجرد اضطراب خفيف ، توتر بلا هدف ؛ عجز يشبه تلك اللحظات حيث كنت أريد أن أفهم ماذا يجمعنا (سؤال لا معنى له ، كنت أعرف ذلك ، ولم يطرحه مطلقا"عشاقي الذين ربطتني بهم علاقة ، ولكنه سؤال ملح ، لم أستطع أن أفلت منه شأنه شأن ذكرى أمواتي). في تلك اللحظات التي صممت فيها أن أفهم حبي لزوجي (كما حدث ذلك ليلة زواجي ، أو إثر رجوعي عن رغبات خيانة) ، كنت آمل جوابا" ينفجر على شكل إحساس آني صاعق مذهل ؛ ولكن في هذه اللحظات تماما"، كنت واثقة أن ما يسمى شعورا" ، هذا الانفعال الذي تفرزه الحياة اليومية ، ستفتته مدارات دماغي . كنت أنتظر برهانا" حسيا" ، حين يؤثر السؤال وكأنه منظف ؛ كان الحب المفترض ينكشط مع تآكل أعصابي فأبقى ملساء ، صلبة صلابة المينا. كنت أحاذي تلك المناطق حيث يؤمن الناس بالحب العظيم ، بلقاء القلوب العنيف ، بالاندفاع العاطفي المشبوب : أي كل ما كان عليّ أن أشعر به بمجرد أن أفكر

بزوجي . لذا كنت يائسة ، وكان قلبي يابسا" متلبدا" ، قعره في منتهى الأنانية ، جوانبه جوفاء خالية ، أما الروح ففي القشرة ، وكان زوجي تعسا" جدا" .

في هذه الليلة، أول ليلة لي بلا أي خبر من زوجي بعد سبع سنوات من الحياة المشتركة، كانت مشكلة اختفائه قد تركتني في بلادة تفوق بلادة حبي . إلا أن المقارنة قد أنقذتني من الهلع الكامل (من رنين جرس الحزن الذي كان يقطّع انتظاري المتزايد غموضا"، وهو يحفر صدري بشكل محسوس) ؛ لأنه كان عليَّ أن أسلم بالبداهة المزعجة ألا وهي أن صدمة غيابه شأن صدمة الأدرينالين ، هذه الصدمة التي كنت أبعدها بكل قواي ، وأحاول أن أنسى أنها تطغي عليَ بشكل متكرر وتتدفع من أطراف أصابعي ، كانت صدمة الأدرينالين البرهان المنتظر لحبي لزوجي .

إن ما أنقذني من نوبة الهستيريا ، هو يقيني الكبير ، حوالي الثالثة صباحا" ، أن زوجي لم يخرج مسرحية اختفائه هذه بكامل السيناريو إلا ليجعلني أعي من جديد حبنا ، وغايته الوحيدة هي أنه حين يرى (بأم عينه) البرهان على يأسي ، حينئذ يعود عودة الفاتحين ليتلقى وابلا" من الصفعات التي لن أتوانى عن تسديدها إليه ، يا له من مغفلٍ ، بعد أن تركني مدة من الزمن فريسة مخاوف الترمل .

لكن زوجي ، هذا اليقين الآخر استحوذ عليَّ حوالي الثالثة والربع صباحا" ، كان رجلا" ضعيف الخيال ، أضف إلى ذلك أنه كان في منتهى اللطف : حتى إذا كان الشك يزعجه كثيرا"،

فلن ينفذ مطلقا" خطة كهذه لينتزع مني اعترافا" بحبه ؛ ولكان قد فضل التهديد على الصمت . مازال الفلم الوثائقي عن الغابة الاستوائية 'يبث ، كانت الغرفة خضراء تماما ، وإثر هذه الخاطرة الجديدة وهي أن زوجي لا يمكنه أن يختفي مطلقا" من أجلي (وهي فكرة عكرت مزاجي) ، أحسست الهلع يعود ثانية، يضغط عليّ بأصابعه الباردة ، وقلبي يتخبط ، وراحت الأعراض الجسمية تنتابني عنيفة : تسارع النبض ، وانسياب العرق في ظهري ، ولهاث متقطع . كان زورق ينساب فوق قنوات الغابة ، وقد 'صور بمحاذاة الماء ، كان ثمة أناس وقد بدت الحيرة عليهم يحاولون أن يمسكوا رأس مركب لا وجود له تحت طبقة من الأوراق ، والأغصان ، والأعشاب الطويلة المتسلقة ، وكان صراخ القردة يدوي في الغابة وتدوي معه أصوات أخرى فظيعة لا أدري ما هي ، كان ثمة فقاعات ثقيلة بنية اللون تنفقع إثر المركب ، فتلتوي زعنفة ، ورحت أختنق شيئا" فشيئا" ، عاجزة عن أن أغير القناة ، وقد تسارعت دقات قلبي ، و'شده فمي ، وغارت روحي كأنها دابقة في عروق منطقة الأمازون في انتظار زوجي .

فجأة ، كطائرة عمودية ترتفع محلقة فوق الأشجار ، وقد كشفت مسيرة النهر كما أظهرت شبكة روافده ، فجأة وكأني قد استرجعت أنفاسي في السماء الفسيحة الواسعة قلت في نفسي إن كل ذلك لسخيف ، وإنه لمن البديهي على أقل تقدير ومن المحتم أن أنام الليلة التالية مع زوجي كما كنت أفعل ذلك طوال سبع سنوات بلا استثناء ، وذهبت إلى الفراش لأنام .

إلاّ أني نهضت بسرعة ، وأضأت النور من جديد وقررت أن أحضر كأس بابونج . شربت البابونج ، وقد أسندت فخذي على حافة المجلى ، وتاه بصري وأنا أنظر من النافذة إلى خيالي تعكسه ثقوب المصابيح ، بدا لي أن قناعا" رطبا" قد يساعد في تهدئتي. أين زوجي ؟ فكرت في هذا النوع من المزاح الطفولي وهو حين يسأل بحار القبطان هل يمكن أن نعتبر شيئا" قد ضاع إذا كنا نعرف أين يوجد ، يجيب القبطان : كلا ، طبعا" ، إذن غليونك ليس ضائعا" ، فهو في أعماق البحر، أين زوجي في هذا الوقت بالضبط حين كنت أبسط على وجهي معجونا" سميكا" أخضرَ ، وقد رفعت شعري بشدة بواسطة مشبك؟ كنت أحرص على رسم نتوء وجنتيّ ، وكذلك ما يحيط العينين والفم ، وأنا أحاول أن أثبت اهتمامي كله ؛ كان وجهي الأخضر بعينين بيضاوين ضخمتين كوجه وحش من كوكب آخر، وجه عفريت أعماق البحار ، أو وجه شبح من طراز عتيق . ذهبت إلى غرفة الجلوس لأستريح قليلا" كي ينفذ المعجون إلى مسام وجهي ، فتحت التلفزيون ثانية . كنت أريد أن أعتقد أن زوجي ما زال يشاركني الحيز ذاته ، وأننا لا نزال سمكتين من البحر نفسه ، وأنه يلزمنا نزهة صيد دقيقة نوعا" ما كي نلتقي من جديد في الشبكة عينها .

غيرت القناة دون أن أنظر ، حاولت أن أشعر بوجوده في مكانٍ ما ، في الشوارع ، في المدينة ، على الكوكب . كم كنت أتمنى ، أن يكون بمقدورنا ، نحن البشر ، التواصل عن بعد ، عن طريق المشاعر ، أن نحس بالرغم من المسافة خلجاتنا

المشتركة (أو ما شابه ذلك). بذلت جهدا" جهيدا" كي أركز تفكيري إلى أقصى حد ، ولكن دماغي وقد أنهكه الانتظار راح يتمرد فأصبت بصداع ، أردت أن أوهم نفسي أني إذا توصلت إلى موجة الطول المناسبة فسأتمكن من أن أجد زوجي ثانية عن طريق اهتزاز أسلاكي اللاقطة : كان على حياتنا الزوجية الماضية ذاتها أن تتيح لنا أن نتواصل على هذا الشكل، وشعرت بأن عجزي فشل لحياتنا الزوجية، وضعف في أخلاقي .

انبثقت مدوية فكرة كنت أحاول حتى ذاك الوقت أن أكتمها وهي : إذا لم أستطع التواصل مع زوجي بالرغم من قصارى انتباهي ، فهذا يعني أن زوجي قد مات . تحت وقع هذه الفكرة، في الرابعة صباحا" ، وجدت نفسي داخل تاكسي أطوف على كل المستشفيات ، أبحث حتى في غرف الجثث . إن صمت صناديق بطاقاتهم لم يكن يثبت أنه حيّ ؛ كان هذا السكوت يعني وحده أنهم لم يعثروا على جسده . ولكني ، وأنا في هذا التاكسي والذي لم يكن سائقه يعرف هل عليه أن يشفق عليّ متعاطفا" معي ، أو يبتسم أو يتجاهلني ، أيقنت تمام اليقين أنه بالرغم من إمكانياتي الضعيفة على التركيز ، فإن موت زوجي ، سواء في الحيز الأرضي أو البحري لو كان قد وقع لضربني كالصاعقة . و لكان شيء في داخلي قد توقف عن الخفقان، يستحيل غير ذلك . رجعت إلى بيتي لأنام .

(٣)

كان تنفس زوجي ، عادة ، في الليل ، يطرد الأصوات كافة . كنت أنام وسط تنفسه . لا لأن زوجي كان يشخر. ولكن تنفسه كان يتجاوز الشارع ، والمدينة ، فيملأ العالم ويسمح لي ، بالرغم من الظلام ، أن أجد فيه مكانا" . كنت أستسلم لإيقاع تنفسه كما لو تركت ذاتي مستسلمة بين ذراعيه لو لم يكن شديد التعرق ؛ كانت كمية ضئيلة من الهواء تأخذ طريقها منتظمة إلى رئتيَّ ، بعد أن تكون قد سارت في عروقه الضخمة كافة . إني أفترض أن الأشباح التي تعيش في الليل كانت تصطدم بواقع منكبيه وبصدره ، لأنها كانت تمر بالقرب مني دون أن تراني ، أو على الأقل ، دون أن تجرأ أن تمسني .

حين تعرفت إلى زوجي ، كان قد أسس مكتبه العقاري الصغير ، كان زوجي موهوبا" في مجال الأعمال ولقد عرف كيف يستفيد من توسع المدينة وامتدادها نحو الأراضي التي على الحدود .غالبا" ما شعرت بملل كبير وأنا أبذل جهدا" للاستماع إليه (كزوجة مثالية) حين كان يعود مساء" ورأسه مفعم بالمشاكل ، فبعضها مشاكل الزبائن ؛ كان عليه أن يدفع ثمن تحفظهم بأبخس الأسعار ، وكذلك البلدية التي كانت تجمد أفضل الأراضي وكان عليه أن يقنع مسؤوليها ليقلصوا حدود تلك الأراضي ؛ ولكن عليّ أن أقر أني وجدته دائما" صلب المراس ، عنيدا" ، صامدا" وشجاعا". كانت هذه الميزات الجلية ، بلا شك ، هي التي تبعد الأشباح . لأنني أمضيت هذه الليلة

الأولى بدونه ، وأنا أضيء النور ثانية ، عاجزة عن التوصل إلى جواب (انعكاس النور والظلال على العوارض ، تيار هواء، طقطقة التلفزيون الذي يبرد ، حفيف الريش في الفراش) عن اقتحام الأصوات . إلآ أني كنت أعرف حق المعرفة أن هذه الأصوات كلها تؤدي دورها . بدأت أعتقد بوجود الأشباح ، والأشباح تتغذى من هذا الشك ؛ ينتصر واقعها ، فيصبح بعد ذلك وجودها بداهة" . إن إضاءة النور ثانية ، لهو اعتراف بوجودها ، وكذلك الحال ، في الظلام ، أن أبقى مفتوحة العينين. حتى حين كنت طفلة ، بالرغم من وجود أمي في الغرفة المجاورة كنت أدخل دائرة الأشباح اللولبية . إن نقطة أن لا رجوع ، التي يهجم فيها الشبح ، لم أصل إليها مطلقا". هناك طرق بسيطة ، وإن كانت شاقة مضنية ، وفي تلك الليلة ، أثناء غياب زوجي ، اضطررت أكثر من أي وقت مضى ، أن أضعها موضع التطبيق : أن تفكير الإنسان عقلانيا" في جنونه الخاص يسمح له أن يقلص الشبح إلى بعد أولي ، ولكن هذا يقتضي حزما" لا يتوفر في ساعة متقدمة في الليل؛ يمكن كذلك أن أحاول القراءة ، متجنبة ما استطعت الجنس الأدبي المتعلق بالخوارق المرعبة ، ولكن الواقعية التي في منتهى السطحية تحدث أحيانا" تأثيرات متناقضة (فبدافع الملل يشتط الخيال)، الأفضل هو اختيار شيء ما تسهل قراءته ، كمجلة أزياء ، أو رسائل قديمة تحرض على التفكير ، وحتى رواية رعب ذات أحداث دامية قد تحررك من خوفك الحقيقي ، نظرا" للمبالغة في الحبكة . وبالمقابل ، فإن الاحتفال بعيد الميلاد ، أي إضاءة النور باندفاع ، من محظوره ، كما ذكرت ، أن يكثف الظلال :

يمكنها حينئذ أن تهاجم بعنف فتسرق مفتاح التيار الكهربائي . وبالفعل ، حاولت عبثا" وأنا أتلمس الحائط كله (حيث كنت أعرف بالبداهة ، كيف أجده) ، فلم أصادف سوى أسنان الحائط الصغيرة الناتئة . أدخلت ذراعي عدة مرات تحت اللحاف ، وأخفيت أنفي ، وهكذا استطعت أن أنجو وأنا على قيد شعرة ، من مخالب ، ومن أسنان ، ومن مصاصي دماء . لم يكن في مقدوري كذلك أن أنهض لأصل إلى المفصل الكهربائي ؛ لأن الظلال التي تحت السرير قد سبقتني فطوقت ، بمخالبها المحرقة، قدميك ما إن تطأ الأرض ، بينما راحت ظلال أخرى تزيح الجدران عن أماكنها ، فتمتد الغرفة على مدى خطواتك ، وسيجدك الناس صباح اليوم التالي وقد فقدت عقلك ، تهيم من غرفة إلى أخرى دون أن تعي أن النهار قد طلع . لم أجد أمامي في نهاية المطاف ، إلاّ أن أسهر ، والنور مضاء ، أنتظر الفجر، ولكن عليّ أن أعترف أن ذلك يعني هزيمة كاملة ، إنه النجاة عن طريق الذل والمهانة ، وهذا يعني ، من خلال الأحداث ، أنني لا زلت طفلة (كان زوجي يطرد الظلال لمجرد قناعته بأنه إنسان راشد) .

إن الفجر وحده قد استطاع أن يخرجني من هذه الليلة القاسية التي حددت بداية حياتي الجديدة الغريبة . طالما قاومت الظلال طوال الليل ، وشعرت باني قد 'خبلت ، حتى ظننت أني وصلت إلى مكان جديد وزمن جديد أيضا" حيث قد أهتز وأضطرب حتى نهاية حياتي ، وصلت إلى منطقة لن تشرق الشمس فيها بعد الآن وهذه المنطقة هي التي ابتلعت زوجي .

إلا أن الشقة أصبحت رمادية اللون رويدا" رويدا" ثم صار لونها خبازيا". أشرقت الشمس خلف البناية ، في حين بقي الظلام مخيما" على غرفنا وكانت السطوح المقابلة قد بدأت تلمع (القرميد) أو تشهر سكاكين تعمي الأبصار (ألواح الأردواز) ، وكانت الأشعة المنعكسة تنفذ مائلة ،على شكل ضوء غريب ، فرعي . نادرا" جدا" ما كنت أرى بزوغ الفجر. ففي بدء حياتنا الزوجية كنت أبذل جهودا" كبيرة ، فأنهض لتناول الفطور مع زوجي (ريثما أنقع حبوب الذرة لفطوري ، يكون زوجي قد ولىّ الأدبار) . ثم مللت فلم أعد أنهض باكرا" . أما أحلامه ، حين كان يبذل جهدا" ليرويها لي ، فكانت ذات رتابة كئيبة ، لم يستطع زوجي مطلقا" أن يتحرر وهو نائم ، فكان يتحدث مع زبون ، أو يبيع مرات لا تحصى شقة تعود لتمثل للبيع في درج بطاقاته (كان هذا أقصى نزوة له) ، وقد يحدث أن يذهب أحيانا" لشراء الخبز ، فإذا ما أضاع مظلته ، رحت أسترسل في تفسيرات عنيفة وتعليقات ساخرة تجعله غاضبا" النهار كله .

ولكن هذا الصباح ، صباح حياتي الجديدة ، بما أنه لم يغمض لي جفن كان الفجر حدثا" جديدا" بقدر ما كان عزاء" وارتياحا" (ولا شك أن الحدثين مرتبطان معا") . كانت الشوارع لا تزال مظلمة ، مبللة ، ضاربة إلى الزرقة . إن هذه الشوارع التي خلت من أية نسمة ، وكذلك من أي حفيف ، والتي كانت خانقة تحت سماء موصدة ، قد أصبحت إلى حد ما مريحة للنظر . إن رؤية طيف زوجي يظهر باستمرار صارت الآن تفوق طاقتي ، بدأت آخذ رويدا" رويدا" إيقاع انتظار

أطول، وكأني في نقاهة إلزامية . بـــدأت الســماء تضـــيء الأرض، برطوبة يتخللـــها بريـــق ســـاخر . كـــان الأفـــق يتشـــقق . وكـــانت العصافير التي لم أرها من قبل ، وهي فـــي الظـــل المعتـــم جـــدا" ، قد راحت تطير مضطربة علـــى شـــكل زوابـــع ، وتصعـــد باندفـــاع واحد دائري المظهر ثم تهوي ، وتحـــاول أن تـــهرب مـــن النـــور . كان الأرق قد شـــحذ حواســـي حتـــى صـــرت أرى النـــور يزحـــف محاذيا" الجدران و ينساب إلى الشـــقة كمـــا تنســـاب طبقـــة مائيـــة . كنت أراه يتقلص على البساط المخملـــي ويضيئـــه مـــن الداخـــل (ثمة رغوات منظفة ذات تأثير ممـــاثل) ، فيصبـــح الغبـــار وكذلـــك الفتات الصغير يشع من نوره . التفـــت' نحـــو المكنســـة الكهربائيـــة، وتساءلت حين يعود زوجي من عمله هذا المســـاء الســـاعة الســـابعة والنصف كعادته هل سينبهني إلى أننـــي لا أهتـــم بشـــؤون المـــنزل ولا أبدي أي نشاط للعناية بالبيت ؟ فـــي هـــذه اللحظـــة (الخاطفـــة) التي عدلت فيها عن استعمال المكنســـة الكهربائيـــة ، انتـــابني طنيـــن شعور بالحريـــة .

أحسست بالجوع . لم أكن قـــد تنـــاولت طعامـــا" منـــذ وجبـــة غدائي يوم أمس . فتحـــت الـــبراد ، كـــان لـــون الألمنيـــوم تحـــت المصباح الخافت بلون الشـــفق تمامـــا" . شـــعرت بالـــهدوء بشـــكل غريب (كانت روحي وقد أعياهـــا التوتـــر والمقاومـــة قـــد أعطـــت نفسها بـــلا شـــك ، بـــالضرورة ، وقتـــا" قصـــيرا" للراحـــة) ممـــا ساعدني على أن أحتمل رؤية قرصيـــن مـــن البنـــدورة وكذلـــك أن أتحمل الندم ، ولقد فكرت أنني لـــو كنـــت زوجـــة صالحـــة لـــنزلت إلى السوق وأحضرت ما أملأ بـــه الـــبراد قبـــل أن يعـــود زوجـــي

منهكا" من عمله ، ولكنت في الاندفـــاع ذاتـــه قـــد اشـــتريت خـــبزا" ولما كان زوجي قـــد اختفـــى . أخـــذت العصـــافير تغنـــي ، وامتـــد الفجر؛ بدأت النافذة الآن تخيفني قليلا"، مكثـــت ليلـــة أمـــس طويـــلا" أرقب عبر أزهار البيلسان ، بقيـــت طويـــلا" جـــدا" دون أن أبـــوح لنفسي بجزعي ، فالقلق الذي تكور أوشـــك أن ينفجـــر فـــي وجـــهي في ضوء الزجاج المتكســـر.

حين قررت أن أطلـــب ســـيارة أجـــرة أخـــرى لأذهـــب إلـــى مكتب زوجي الخالي أفتش فيه ، ورجعت بخفـــي حنيـــن كمـــا لـــم أكن أكثر اطمئنانا" ، أدركـــت أننـــي قـــد اســـتنفدت آخـــر فرصـــة عقلانية لأن أجد زوجي بنفســـي ، ذهبـــت إلـــى مخفـــر الشـــرطة ، وأدليت بشهادة ســـتؤدي إلـــى فتـــح تحقيـــق بســـيط (بســـيط ، لأن مائتي شخص يختفون كل يوم في البلد) وقـــررت أن أعـــد القـــهوة، على كل حال لن أنـــام .

ذاك اليوم ، حوالي الســـاعة التاســـعة صباحـــا" ، فـــي اليـــوم التالي لاختفـــاء زوجـــي، جلســـت فـــي المقعـــد الوثـــير ، الحديـــث الطراز وكنت قد اشـــتريته بالمراســـلة (بـــالرغم مـــن معارضـــة زوجي ، إنها لقصة طويلة) ، فـــهو مقعـــد مريـــح ، مـــن الجلـــد ، وفي منتهى الجمال ، وحاولت والفنجان فـــي يـــدي ، وقـــد عملـــت كل ما استطعت ، أن أتخلص ولو للحظـــة مـــن القلـــق الـــذي قطـــع أنفاسي والذي شغل الحيز كله داخلـــي ، وبـــدا يتضخـــم فـــي كـــل حركة أقوم بها ، وكأنه سائل تهزه حيويتـــي الخاصـــة . بقيـــت مـــا استطعت جامدة بلا حراك ، وراح هذا القلق كلـــه يتجمـــع ويـــتراكم على شكل طبقة ، وددت ألاّ يعود في مقـــدوري أن أنقلـــب كمـــا لـــو

لم أكن سوى كتلة أو مجرد وعـــاء . ظننـــت حينئـــذ أنـــي ســـأغرق في مقعدي الوثير ، وأنا ثقيلة أبقبق ، وقد طفـــح فمـــي مـــن غيـــاب زوجي . أين كـــان ؟ لـــمَ لـــم يرجـــع إلـــى البيـــت ؟ إن صيـــاغتي للأسئلة تفسح ممـــرا" لـــنزر ضئيـــل مـــن الـــهواء ، واســـتطعت أن أتنفس قليلا" وأنا أطرح هذه الأســـئلة التـــي تذكرنـــي عـــن ســـبب القلق . كـــان القلـــق كـــالظلال : فـــهو يتغـــذى بـــاحتلالي كليـــا" ، فأستسلم بالمقابل ، حينئذ يستمد هذا القلق قوتـــه وهـــو يتغـــذى مـــن ذاته بعد أن يكون قد أضناني شيئا" فشـــيئا" ، حتـــى إنـــي لـــم أعـــد أعرف ، وقد افترسني لمَ أنـــا مقطعـــة الأوصـــال هكـــذا وخاويـــة . وكان زوجي قد اختفـــى تمامـــا". وكمـــا يصعـــب كثـــيرا" أن نمـــيز نقطة في الغبش ، لأن هذه النقطة وقـــد حدقنـــا فيـــها كثـــيرا" تنحـــل في شبكية العين وتضيع في الظلام ، لترغمنا بعـــد ذلـــك علـــى أن ننحرف بنظرنا قليلا" كي نستطيع أن نرى مـــن جديـــد ، فـــي دائـــرة قزحية عيننا ، وأن نفك هذه النقطة ونتعـــرف إليـــها ؛ كذلـــك كـــان عليّ ، كي لا أنسى سبب قلقي ، أن أحـــاول أن أزيـــح تـــأثيره عـــن طريق الأسئلة . حينئذ كنت أرى من جديد هـــذه الحقيقـــة الســـاذجة، والتي يمكن التعبير عنها والتي لا جواب عليـــها ، وتكـــاد أن تكـــون عادية وتافهة لأنها تتألف من جملة بســـيطة : اختفـــى زوجـــي . لـــم يعد أمس مساء" إلى البيـــت . وللحظـــة ، اســـتطعت أن أفـــهم كمـــا استطعت أن أدرك وأنا أطرح الكلمات على هذا الشـــكل ، مـــا كـــان يمتص دمائي فيجمدني في مقعدي ؛ كـــان بإمكـــاني أن أصـــف هـــذه الحالة وأصنع منها لغزا" . ثم ارتبـــك فـــهمي وأصبـــح كـــل شـــيء أشد إثارة للقلـــق ، جديـــدا" كـــل الجـــدة ، مفككـــا" بـــلا قـــاعدة ولا مضمون ، أي عديم الشـــكل .

ذاك اليوم حوالي الساعة التاسعة ، وقد تقطعت أنفاسي وأنا في مقعدي ، نجحت مع ذلك في أن أنهض وآخذ من على المكتب صورة زواجنا . أردت أن أستمد من هذه الصورة، من ابتساماتنا المرغمة قليلا" ، والتي أجبرتها آلة التصوير عليها ، وفي النمط المألوف ليدي تلف مرفقه ، ثمة معنى للواقع ، معنى لهذا الماضي ولحياتنا الزوجية ، قد يطرد القلق الرهيب . ولكن أمام الصورة ، في ذاك الوقت (وفي ذاك الوقت فقط) اضطررت أن أقبل ، بعد ليلة بدون نوم وبلا راحة ، أن زوجي قد اختفى ؛ وأن قلقي مبرر ، بلا حدود وبلا نقاط ارتكاز. تحركت الصورة ، فأصبحت مهتزة غير واضحة . استدار زوجي نحو داخل الصورة ، كما يفعل المرء ، في اللحظة التي ينطلق فيها وميض العدسة ، فيحول انتباهه . ولقد كانت ابتسامتي المرغمة وتعبير وجهي المتصنع على هذا النحو لأمسك به قد جعلاني أتعلق به على هذا الشكل ، لأرغمه على تثبيت ناظره . التقطت العدسة تلك اللحظة ، كما التقطت توتر وجهي وكذلك كم مرفقه وقد تجعد ، ورقبته وقد التوت ، وبدا بياض خفي جدا" انمحت فيه ملامحه . كنت أمسك ، مكان زوجي ، بكم طقمٍ صلبٍ وجديد ، مع شعر مستعارٍ بنيٍ اللون. وبدلا" من رعونته ، وحرجه أمام المدعوين ، كان هناك على الصورة حركة ، أو هروب يتدرج في السواد والبني . كانت هذه الصورة جميلة جدا" . كانت صورة اختفائه .

بدا لي ، وأنا واقفة والصورة في يدي ، أني لو وصلت قبل عدة ساعات ، لربما استطعت أن أحتفظ بزوجي ؛ وأن أشد

ذراعه بأقوى مما شددت وأن أقطع عليه مواربته . بدا لي أني لو فكرت من قبل في أن أستشير صورته ، لكان قد بقي هناك خاشعا" في ذراعي، ولما تحركت الصورة . انتابتني رغبة جامحة في أن أهتف إلى حماتي ، لأطلب منها أن تصف لي الصورة الأخرى المماثلة لصورة زواجنا التي وضعتها على تلفازها . ولكني بدأت أفكر كيف أتجنب الألم . حدث ذلك مساء البارحة ، حين تكلمت معها هاتفيا" ، عبر الأقمار الصناعية ، في فراغ الليل المطبق ، أدركت أن كانت تنقصني الشجاعة لأحتفظ بها هي الأخرى ، لأخبرها ولأبكي معها ؛ حين انتابها حدس باختفائه ، هذا الحدس الخافق وقد سمعت أجنحته تصفق كطائر الحجل المقتول.

أخذت دفتر صور زواجنا وغصت فيه كما أغوص في غابة بللتها العاصفة . لم يعد يظهر وجه زوجي في أية صورة ولكنه كان يتجه إما نحو أعماق الصورة أو نحو جوانبها، كانت عيون الناس تحدق فيّ ، والعدسة مثبتة عليّ ؛ كما لو كنت قد فزت في مباراة ، أو بطلة حدث مثير في الصحف ، أو فتاة فاضلة تمسك ذراع مجهول ، أو صبية أكبر سنا" من المألوف تتقدم لمناولتها الأولى ، أو نجمة تلبس البياض وسط مسيرة فلكلورية . شعرت إثر تتابع الصفحات بأني لم أكن إلا" زوجة زائفة ، وحيدة وحزينة ، ويدي ما زالت مرفوعة نحو مرفق غائب . رحت أقلب الصفحات بسرعة تتزايد ، كنت أريد أن أستبق اختفاء زوجي ، والورق الحريري يتجعد بين دفتر الصور ، والزوايا التي تثبت بها الصور تتطاير ، في حين

أخذت الصور المقلوبة تتساقط الواحدة فوق الأخرى . كنت أمسك في الهواء خيال عابرٍ ، أو قفزة خارج الصفحة ، أو فسحة ، أو حركة أكتاف ، وربما خصلة شعرٍ . كنت أعود إلى الوراء ، وفي همس الورق شعرت بانزلاق ، بشيء ما يتمزق ، بنفحة تحت الشفاه أو تحت الأهداب .

أطبقت يديَّ ، وقد ارتبكتا ، على حقيبتي الصغيرة البيضاء، وكنت وسط الحشد الذي راح يرش عليّ حبات الرز ، كأنني أخاف أن ينتزع أحد ما حقيبة يدي كما لو كانت تحوي اعترافات . إني أعرف حق المعرفة أن نظرتي في هذه الصور لم تتغير ، إنها تلك النظرة إبان الحفلة : نظرة هاربة ، كنا نريد زواجا" بسيطا" بلا حفلة ولكن حماتي حرصت على أن تقدم لنا حفل زواجٍ فخما" (حفلا" في وضح النهار جليا" ظاهرا" كما لو كنت حاملا" في الشهر الثامن) . حاولت أن ألعب دور الزوجة بشكل معقولٍ ، وأن أجد النبرة الملائمة لأقدم أجزاء مسرحية تمثل لم أطلبها ؛ ظهرت ومجرف الحلوى في يدي ، في هذه الصورة البلهاء التي كانت ، في لحظة التقاطها ، قد أزعجتني مسبقا" ، كما إن غياب زوجي عني قد دل عليّ دلالة قاطعة بأني جسم غريب .

انتابني شك رهيب ، وأنا أقلب الصفحات الأخيرة ، حيث لم يعد أحد يرش الرز عليّ، وحيث أصبحت الأنظار غامضة ، وكأن المدعوين يتساءلون ماذا يفعلون هناك ، ألم يكن زوجي حيث وقف ، وفي الوقت الذي حضرت فيه اختفاءه ، قد اعتبر نفسه منذ تلك اللحظة "مطلقا" لم يتزوج البتة ، حرا" من كل

ارتباط ؟ ألم يكن زوجي يعتبر ، من المكان الـــذي اختبـأ فيـه ، أن زوجته لم توجد قط ؟ رحت أبكـــي فـوق دفـتر الصـور ، فـوق دفتر أعشاب لأوقات قـد ذبلـت ، راحـت الدمـوع تبلـل الـورق الحريري الذي كان يلتف كعجيـــن تحـت أصـابعي و يزيـد محـو لمعان الصور ، كان المطر يهطل علـــى حفـل زواجـي وشـعرت بالبرد وأنا ألبس طقمي الأبيض القصير، قيـل لـي المثـل الشـائع : زواج ممطر زواج ســـعيد .

في الحقيقة ليس لدي كثير من الأدلة . لـم نكـن نريـد خواتـم زواج . كما لم نضع في مخازن الـــهدايا قائمـة بمـا نرغـب مـن الهدايا . لم نرد ثوب عرس طويلا" بذنـــب فضفـاض ، ولا أطفـالا" بأشرطة يتقدمون العروسين . إن الامتياز الوحيد الـــذي فكرنـا فيـه للقيام بزواج حقيقي قد خطر لنـــا ذاك النـــهار .

بحثت في الخزانة ووجدت طقـــم زواجـي الأبيـض القصـير في قعرها ، وقد اصفر قليلا"، لم أعد ألبسه كثيرا" ؛ لـــم يشـبه قـط ثوب عروس كما لم يشبه مطلقـــا" طقمـا" بسـيطا" للنزهـة ، حتـى بعد نزع الأشـــرطة . لبسـته أمـام مـرآة غرفـة النـوم . امتـلأ بصدري ووركيَّ أكثر من ذاك الوقـت . لقـد فقـدت قـوام الشـابة الممشوق الذي تشهد به الصـور. إن أطـول فـترة حمـل لـي قـد دامت مع ذلك حوالي ستة أشهرٍ . كنـت أشـعر بـالطفل يتحـرك . ما زلت أشعر به، أحيانا" . بقـي هـذا الـوزن ، كمـا بقـي لـون العروتين ، عروتيَّ ثدييَّ . من قبل ، كانتـا ورديتـي اللـون . أمـاَ الآن ، فهما بنيتان . إنه الأثـــر الملمـوس الـذي يتركـه الحمـل ، ولكن قلة من الناس تعرف ذلـــك .

كانت الشمس قد أشرقت منذ زمن ، فأضاءت الشقة إضاءة كبيرة وإن لم ينفذ بعد أي شعاع مباشر إلى الداخل ، والنور حولي ، بين جدراننا العارية (كان يريد زوجي ورق جدران ونباتات ، أما أنا فكنت أريد طلاء" وصورا" إعلانية: ولقد استحال الوصول إلى أي اتفاق بشكل موضوعي) ، كان النور يشع لؤلئيا" فضيا" لا يتغير ، إنه نور وعاءٍ زجاجي خاوٍ . في هذا السكون ، وسط هذا الجمود الذي راح يثقل حتى كاد ثباته يبعث الاطمئنان ، رأيت خيالا" يتشكل رويدا" رويدا". لامست ورائي سماعة الهاتف لأتأكد ، عبثا"، من أنني قد أحسنت تعليقها (وبالطريقة ذاتها قد أحرك القاطع الكهربائي لأتحقق من أن النور قد أطفئ ، وبالتالي يتلاشى الظل ؛ ولكنني كنت متأكدة من أنني قد علّقت سماعة الهاتف ، وكنت بعيدة عن كل القواطع) . بدا الظل أشبه بالخيال : اضطررت (كما أحاول في الليل أن أستشف ، عن سهو وعن تناقض ، أثرا" يعوم في الظلام) أن أركز على اهتزاز الضوء في دائرته . كانت مواجهة الخيال تخفيه . كانت نوعا" من تكثيف الفضاء ، وربما تبطئ أثر الشمس كما يحدث من خلال مصفاة ؛ فيثقل الهواء ، أمام ناظريّ ، ويمكن لمسه . راح يتحرك بهدوء ، وقد استسلم قليلا" إلى الهواء ، دون أن يغير شكله ، كان مجرد هواء أثقل من المألوف . التفت إلى الوراء لأرى إن لم يكن ذلك ظلي ، أو ظل شيء ما ؛ أبعدت يدي ، فلم يظهر أي أثر انعكاسي ؛ نفخت ولكنه لم يتحرك ، وقفت ببطء كي لا أخل بتوازن الغرفة الجديد هذا ، نظرت بإمعان جانب الظل تماما" كي لا يغيب عن ناظري ، كان الظل واضحا" تمام الوضوح ،

يتموج جليا" في النور؛ أجلت بصري بلطف ، كان على شكل عمود من الهواء في الهواء ، تركز جزء من الهواء في هذا الموضع فأحدث بذلك ثقلا"، وظلا" ، كانت ذرات الآزوت والأكسيجين قد تلاحمت ، تقدمت خطوة واحدة فقط وسطه ، فتجمع حولي وأحسست ضغطا" ، وشعرت بقبضةٍ ، ثم اختفى .

استلقيت على فراشي . وكنت أرى من غرفة نومي النور يزداد بريقه في الغرفة المجاورة ، كانت عيناي ترمشان ، كما لو انفجر شيء ما بسكون ، وبلا أية شظية ، فبقيت هذه الجدران البيضاء ، منتصبة جامدة بلا حراك . دخل شعاع ، إنه أول شعاع لهذا النهار . لقد انساب تحت الزجاج وفجأة ظهر الغبار ، يحدده خطان متوازيان إلاّ أنه راح يتحرك من

تنفسي فقط ، كان هذا الغبار ذا كثافة غير متوقعة في الصباح النقي ؛ بدت المادة ، وقد خمد، كأنها اضمحلت في مكان آخر . رحت أعوم تعبا" ، وشعرت بأنني أعلو قليلا" فوق الأغطية؛ رأيت الغرفة خالية وبيضاء تماما" يخترقها الشعاع فقط ، فتخيلت هكذا قاع البحيرات النووية، حيث اختفت كل حياة، وحيث بدت المياه ، التي هي أثقل من المألوف بسبب صفائها الكبير، وقد رست على طبقة رمال تنضح ، وكأن لا شيء يمكن ، مطلقا" ، أن يحدث بعد الآن ؛ كأن الزمن قد التحم كتلة واحدة ، كنت أسير في قعر البحيرة وأشعر بثقل السكون ، والجمود، والبياض . إن مياه البحيرات النووية في منتهى الجدب حتى إن كل أثر يختفي ، وإن حمض (أ.د.ن.) ،

المشع، يذوب في جسمك إلى أن يتركك خاويا" حتى من أدق أخاديدك ويمحو منك الأنسال القادمة .

دق جرس الهاتف. اقتضى رفع السماعة مني جهدا" يماثل الجهد الذي بزلته لأستيقظ، صعدت إلى السطح وجعلت الهواء ينساب في حلقي ؛ بدا كل شيء وقد استعاد نوعا من شبه حياة ، ظهرت حركة من خلال الشعاع . ثمة أحد ما يكلمني ، كانت أمي تهتف إلي من مكتبها. بدا لي أنه قد يكفي للارتباط ثانية بطبيعية الأشياء ، أن أستعيد معها لعبتنا القديمة ؛ فيرجع كل شيء إلى مكانه ، وهكذا يستقر المشكال على الصورة الحسنة : أنا ، وزوجي ، وحماتي ، وأمي .

سألتني أمي بقلق عن صوتي الواهن . قلت لها : اختفى زوجي . كأن هذا يعني القيام بتجربة كيميائية ، إدخال عنصر غريب في جسم ما . بقيت أمي صامتة . لم أعرف إذا كانت تبحث عما تقوله لي ، أم إنها كانت تحت وقع النبأ ، شأنها شأن حماتي قبل عدة ساعات ، في تردد قلق . راحت أوراق الأشجار ترتجف على خط الهاتف ، تنفست أمي بقوة، شعرت بعرائش تنمو وكذلك بسرخيات وبشجيرات تمتد على مستويات كثيرة ، كما نمت نخلات رطبة وعريضة تشبه مضايق بحرية ، قالت أمي : زوجك ، ولم أعد أسمع سوى حفيف غابة صغيرة بيننا ، أو حرش صغير ، أو زقزقات . بدا لي أن صوتها قد رق وتقلص كجسم مادي فراح يصغر تباعا" ويزداد خشونة ، صار بثرا" ، وصملاخا" متبلورا" من طرف الهاتف الآخر كأنه آت من أعماق الأذن . أقفلت السماعة . لقد تطورت اللعبة تطورا" كاملا" .

(٤)

إن الصمت الذي تبع صوت أمي ، وإغلاق سماعة الهاتف، قد أعاداني إلى مركز ألمي ، وأوصلاني مباشرة بالمأخذ الذي يوزع منه قلقي ، ووجدت نفسي هنا ، بلهاء ، أمامي النهار كله أنتظر انتظارا" علمني الليل فيه بأنه نوع من السلبية المخيفة ، قمة السلبية ، وبشكل أدق تعذيب مروع . لم أكن أعرف ، في الدقيقة التالية ، من أين أستمد قوتي لأعيش تلك الدقيقة . بقيت أحدق متفحصة في سواد الجلد البرتقالي اللون التجاعيد التي في غاية الدقة و التي تشكل شبكات كبيرة يعادل حجمها قدرتنا على الألم ، كنت أرى شرارات العين تتراقص وسط الدموع ، وقد راحت تتكاثف ببطء في زوايا التقاء أجفاني فتشكل طبقة شمعية تمنعني من أن أفتح عينيي ثانية ، وأن أخرج من هنا ، وأن أفلت من الضغط الذي لم يعد يحتمل علي جهازي العصبي ، وأن أهرب من انهيار جهازي العصبي القريب الوقوع وقد راح يزداد تفتته في داخلي وبعثرته بشكل ملحوظ ؛ كنت قد استلقيت ممددة على ظهري، فوق أغطية السرير المكورة ، وثناياها في كليتيّ ، وجسمي مشدود كالقوس ؛ كانت قفزات أعصابي توقظني بتقطع ما أن أسترخي قليلا" ، ما أن 'يهدئ جسدي مقاومته وترتخي عضلاتي ويخفف دماغي الحراسة قليلا" ، حتى تثب إلى ظهري طاقتي المتجمعة بأكملها فتقذف بي إلى السقف ، ثمة شيء يريد أن يخرج مني : وحش كله أسنان ، رجل أخطبوط ضخمة

تكورت في أمعائي ، وقد تنبثق بأي شكل ما ، متلوية على شكل محجم تلو المحجم في ثنايا أحشائي ، تلتصق بها ، مهتزة ، تحترق في مبيضي ، وقد استقر منقارها في رحمي وقد تقطع في ثمانية اتجاهات باسطا" قطعا" كريهة من الدماء المتجمدة ، انتابني ألم فظيع في بطني فانطويت على ركبتيّ ؛ كان ارتخاء قصير قد هدأ الأخطبوط في حين لمع ألم في ظهري ، فأحسست عمودي الفقري قد انغرس فيّ كأنه سيف نفذ بكامله في لحمي فأمسك بي كالصنارة تحت رقبتي ، رأسه حديدي ، والزند المعدني قد تعلق بالرقبة ، كانت عصا صيد كهربائية تسحب من عروقي أسلاكا" شائكة ، تجعل الأسنان تصطك ألما" ؛ فاستيقظت فجأة ، كان السهر اختياري الوحيد . كان عليّ أن أنهض وأبدو وأنا أتابع التقدم دون أن أعير اهتماما" إلى الإبر التي غرزت في نخاعي الشوكي ولا إلى المشابك التي أطبقت مباشرة على نفيريِ مبيضيِ ، كان عليّ أن أتظاهر بسماع المذياع أو أن أتنزه من جهة البحر .

في دكان بيع السجائر حيث لم أكن أشتري منذ سبع سنوات بالضبط ، إلا علبا" صغيرة لحبات سوس ، طلبت علبتي سجائر من الدخان الثقيل . كانت السيارات تلمع لمعانا" رماديا" ، أما ممر المشاة المبسوط كسجادة مخططة فلقد مد شرائطه المشعة تحت كل خطوة من خطواتي ، كنت أسير وسط زمامير السيارات وانفلات غازاتها .

إن لقلة النوم نتائج غريبة . لا أدري كيف وصلت إلي شاطئ البحر . أيقظني أزيز الأمواج . كانت علبتا سجائري كما

هما بجانبي ، وقد غطاهما الهواء رويـــدا" رويـــدا" بطبقـــة ناعمـــة من الرمل ، كانت تنزلق فـــوق الـــورق الشـــفاف كمـــا لـــو كـــانت ترفعها حركات جلد خفية . راحــت حبــات الرمـــل تـــدور بعضـــها على بعض ، تحت ناظريّ تماما" ، صفـــــراء شـــاحبة فـــوق زرقـــة أحرف علبتي السجائر الفاقعة ، كما لو كـــانت أقزامـــا" قلبتـــهم قـــوة يجهلونها ، وقد تكوروا مذهولين ، قريبين كـــل القـــرب وضخامـــا"، تحت المجهر في مدينة عمت فيها الفوضى . كـــان وجـــهي مخبـــأ"، وأنفي أمام البحر ، أستنشـــق الـــرذاذ ، بـــدأت أتغطـــى تدريجيـــا" ، وأنا كذلك ، راحت رموشي تـــرف مـــن هجمـــات حبـــات الرمـــل ، كان الهواء يحملها معه ثم يعيدها وخـــزا" علـــى وجنتـــيَّ ، وهبـــات تلفني شيئا" فشيئا" ؛ كان سيلان طويل وشـــاحب يســـري فـــي ثنيـــة كليتيّ ، كما كانت كثبان صغيرة جـــدا" مـــن الرمـــل تمـــلأ تجويـــف ركبتيَّ وتشد فخـــذيّ وســـاقيّ ؛ وكـــانت أجفـــاني، رغمـــا" عنـــي ، تبطئ متثاقلة مـــن الرمـــل وقـــد التصقـــت التصـــاق غبـــار الطلـــع بالغمديات. انتفضـــت.

لطمني البحر وســـط رأســـي ، علـــى شـــكل لفافـــة ضخمـــة تقصف رذاذا" على بعد أقل من متر عني، تـــــهز خلايـــاي العصبيـــة بهواء عنيف . ثمة قلق آخر ممكــــن ، كنـــت أشـــعر بـــه قـــد بـــدأ يصعد، ليجعلني في منتهى الوعي ، هنا ، يقظـــة ، منفتحـــة تمامـــا"، إنه شكل آخر لقلق يتربص بي أتى ينتصب أمـــامي ، بـــلا مفـــر ولا مخرج ، ينظر إلـــي نظـــرة مباشـــرة ، صريحـــة . جلســـت أركـــز فكري وقد ثبت ردفي في الرمـــل ، وامتـــلأ حذائـــي ، كمـــا كنـــت أفعل وأنا طفلة ، أفكر في الألم الطفيف الـــذي يســـببه الرمـــل وقـــد

تجمع بين أصابع الأقدام ، فصقل أظافرك بصمت ، من الأعلى ومن الأسفل ، وهو يدخل ذرات صغيرة قاسية جدا" في باطن قدمك . بسطت يدي نحو علبة السجائر ، نزعت عنها غلافها ، عادت هذه الحركة من تلقاء ذاتها ، كانت القداحة هنا بين ثنيتي بنطالي الجينز ، في مكانها المألوف ، كما لو أنها لم تتركه البتة، تكورت يدي على شكل دائرة لتوقف الهواء ، وانحنى رأسي جانبيا" ليبعد شعري ، ودولاب القداحة يحتك بالحجر ، واللهب الذي لم ’يحمَ بشكل كافٍ ينطفئ (هذه اللحظات التي لا تحصى من حياتي قبل الزواج ، يحاول العابر أو الشخص الجالس على الطاولة المجاورة ، أن يساعدك ، كلمة الشكر المعلوكة بين الشفتين ومرشح السيجارة ، أحيانا" تتلامس الأيدي) . كنت أجلس القرفصاء ، وكاد وجهي أن يلامس الأرض ، وشعري يطقطق برائحة احتراق في بعض مواضعه ، كي أسحب بين يديَّ المضمومتين أول نفحة ، مكثت هكذا ، وقد توقف تنفسي ، ثمة صبر غريب كان ’يبث وفق إيقاع دمائي ، كما عمّت ثقة أليمة ، فيزيولوجية بحتة ، في أطرافي . امتلأت رئتي ، وامتد جوفي ، فنفخت ببطء ، من كل عضلاتي، من كتفيَ ، من رقبتي ، كنت أحاول أن أحرر صدري ، فرحت أنفث متمهلة الدخان الأزرق ، المنقى كأن مصاص دماء قد صفاه ،كان الدخان الأزرق رشيقا" يتراقص في الهواء البحري، إنه دخان سيجارتي الأزرق الشاحب .

أخذت لفافات المياه تنبسط ، فخفت حدة ضرباتها على الساحل الرملي الذي كان يحتفظ بالماء مدة أطول ، كما يحتفظ

بالريح ، فتتشكل بالتالي فقاعات ضخمة وتلال مشبعة بالماء ، قد تبتلع نعليّ وهي ترسل ضجيج محجمة إذا ما غامرت وتقدمت قليلا" . ألقيت نظرة حولي ، كنت أشعر بدوار خفيف ، وكانت أطراف أصابعي المملوءة بذرات الرمل قد تخدرت من النيكوتين ، بدت بشرتي قد ثخنت فقلت حساسيتها بالريح وببرودة الرذاذ اللآسعة . كان الشاطئ خاليا" ، لا أحد يأتي هنا مطلقا" ، نسي السكان أن العاصمة بحرية تصلح للاستحمام. كان الدخان تحت شفتيّ ، وعلى لساني ، و في حلقي وداخل تجاويف أسناني ، كنت منكمشة على نفسي ، والسماء تتتابع في حدقتيّ كمجموعة طائرات ورقية تتقدم متمزقة في كتلة الغيوم الضخمة.

إن مدى الأمواج يشكل مكانا" يمكن أن 'تعطى فيه صورة عن الغياب ، إنه مكان يريح إلى حد ما لأنه واسع وخالٍ . إن زمن البقاء هنا للنظر إلى الأمواج والسماء فوقها ، يعطي شعورا" بالامتداد حتى الأفق مع امتداد البحر ، و في هذا الزمن قد يشكل الغياب والديمومة مجتمعين أشياء ذات وجود . كنت أعلم حق العلم أني ما إن أدخل إلى البيت ، حتى يثب قلبي وثبات نمر في اللحظة التي أضع فيها المفتاح في الباب ، بدأت أحس في جسدي استعدادا" للعودة ، لأرى إن كان يكفي دورة مفتاح (هذا يعني أن زوجي هناك) أو دورتا مفتاح كاملتان تطقطقان ، ما الرسائل على شريط مسجلة آلة الهاتف ، من زوجي ، من الشرطة ، من حماتي ، من مشرحة الجثث ؛ شعرت داخل جسمي بضرورة ملحة في أن أترك الشاطئ حيث

قدرت ، أمام فساحة البحر التي لاتدرك ، أبعاد اختفاء زوجي ، كما قدرت الصبر الذي يستحيل والذي عليّ أن أظهره ، حتى الأفق حيث لا يزال البحر ينبسط وراءه ، والصبر الذي علي أن آخذ عظمة حجمه لأحوي في داخلي مد البحر وجزره طوال فصول غيابه . انتابني الغثيان وأنا أدخن ملء رئتيّ في الهواء المشبع باليود أمام الأمواج ، حتى إن أصابعي احترقت من مرشحة السيجارة وقد اشتدت حرارتها الآن ، كان ثمة شيء ما يقرقر في أعماق بلعومي وكان هذا المذاق القذر قد نتج عن كل هذه الدموع المكبوتة ، دوار بحر ذو طحالب طويلة لزجة شكّلها الطمي والملح ، وكان عليّ أن أنزعها ، خيطا" فخيطا" من بحر (سارغاس) الذي أضحى مشهدي.

كنت أمشي بمحاذاة الأمواج ، وقد ابتعدت كثيرا" عن محطة المترو ، وصلت إلى منطقة الأبراج المصفحة ، حيث ظهرت الخطوط الأولى للمناجم التي تجعل الحدود تمتد في البحر . كانت مراكب حديدية تدخل وتخرج من القناة ، كان هذا يشكل حركة مستمرة ، هل كان زوجي ، من الجزر ، يفكر في الهرب إلى أبعد من ذلك ، هل كان يسعى نحو بلاد أخرى؟ رست الأسبوع الفائت ببساطة سمكة قرش تزن طنين ، راح رجال الإطفاء يرشونها بالماء طوال النهار ليوحوا إليها أنها في البحر ، إلى أن لفظت روحها البائسة في تثاؤب أخير كريه الرائحة . هل كان زوجي في هذا الوقت يحتسي المشروبات التي تساعد على الهضم ؟ كادت الفكرة في حد ذاتها أن تضحكني . كان البحر وقد فتح فاه يرتمي على الرمال ، فيقتلع

الشاطئ بضربات أسنانه ليبصقه ثانية علـــى بعـد عشـرة أمتـار ، على شكل فتائل غريبة . وصلت على مـــرأى مـن أسـود البحـر ، كنت أسير بسرعة متزايدة ، وأنا أتعثر بكعبـيّ حذائـي فـي الرمـل الرخو ، فيغرزان دون أية مقاومة ، وبشكل مزعـــج ، كأنـهما بـلا شك ، قد دفعت بـــهما ضربـة قـدم ، مثـل بطـن أسـود البحـر الضخمة كلها ، التـــي تـأتي المدينـة بأجمعـها لتطعمـها بطريقـة فلكلورية كما لم يعد لهذه الأسود إلاّ فســحة ضيقـة بيـن أحـواض الملح لأن السكان في تزايد مسـتمر وفـي انتكـاس متفـاقم ، كنـت أسير مسرعة وقد اجتاحتني رغبة في الصراخ عاليـا" فـي الـهواء؛ كنت أكره زوجي ، وأتقيؤه بكامله ، أينما كان ، ومـــع مـن كـان ، فليذهب اللعين إلى الجحيم ، إلى أحشـاء أول سـمكة قـرش تقرقـر جوعا" ، إلى فراغ البحـر بكاملـه المليء بأسـماك نتنـة كريهـة وبأخطبوطيات أشد نتانة . ســقطت جالسـة ، فاجتيـاز كـل أسـود البحر هذه يقتضي سيرا"، كما في متاهـة ، بيـن بطونـها الضخمـة وأنفاسها المقززة . أخرجت سيجارة ، كـــان حـاجز مـن الأجسـام يحجب الرؤية ، وقد لطخ باللون الأســود ، والأحمـر ، والرملـي ، كانت هذه الأجسام على شكل لبـن رخـوة تكدسـت فيـها الظـهور والبطون كما تجمعت قطع مـــن فـراء ، ونتـف مـن شـوارب ، وصدور عالية ، عدوانية ، في حيـــن كـان صـدر آخـر يتحـرك ليتقدم بضعة أمتار مربعة على الرمل ، و كأن رأســـه قـد تسـطح بمطرقة ، وتساقطت تثاؤباته وهو يطقطـــق فكـه ممـا جعـل لثتـه وأسنانه يلتقيان على شكل لولبي في معمل آلـــي صنـع مـن اللحـم الضخم . كان الذكر المسيطر لا يكـف عـن النظـر إلـي بطـرف عينه نظرة اشمئزاز ، قـــدرت وزن الحيـوان، لا أقـل مـن ثلاثـة

أطنان ، أما جلده فلقد تصلب من سنوات من الملح تجمع على شكل قشر ، لم يكن ليحاول القيام بأدنى حركة ، ولا بأقل جهد من كتلته الممتدة ، استجمعت قواي وألقيت حصاة أصابت بالضبط ما بين عينيه ففتحهما الأبله قليلا" ، سار الخبر من خلال شبكة أعصابه المغلفة بالشحم ، كما استطاعت خليتان عصبيتان أن تنفصلا عن شحمهما لتباشرا تدحرجهما الكروي ورأيت الكتلة الضخمة بلا رأس ولا ذنب البتة تتحرك كدودة نحوي ، تتقدم الجدعتان أولا" ، تليهما ضربات في المؤخرة ثم موجة تسري تحت الجلد ، قطع مترا" ثم سقط الجسم . ضحكت ساخرة ووقفت ، بكثير من الزهو والخيلاء ، وابتعدت بقدميَ مقوّسة دون أن أشعر بضرورة الهرولة ، فخورة كعروس البحر الصغيرة وقد شقت إلى قسمين بساقيها الجديدتين ، كما 'قصت مثلها ألما".

إن إيقاع السير أو السيجارة قد أدى إلى إخماد شيء ما في داخلي (رد فعل كيميائي ، انشطار حراري نووي كان 'يقلع في نواة خلاياي) ، وملأني القلق من جديد ، هادئا" رصينا" إن صح التعبير ، وبلا منازع : إن توتر الأعصاب لم يكن شاملا" بنوع كامل ليشغل جسمي طويلا" . كانت صورة زوجي تتجمع ثانية في داخلي ؛ لم تكن وحدها بل كان معها الكتلة ، والحجم ، كان منطاد في بلعومي كي يرفع عنقي اختناقا" ولكن دون أن يعلو بي عن الأرض ، كنت متوترة منهكة ، كأني قد 'شطرت شطرين ، قدمي في الرمل أما رأسي فمثل منطاد من الهيدروجين .

أشعلت سيجارة أخرى . كان الضباب يزيد مع البرودة . برد الهواء أسرع مما برد البحر ، الذي كان يدخن بخارا" أبيض ضخما" يتكاثف مطرا" ناعما" يسقط على وجنتي . كانت كل موجة تتقوس ، لحظة انكسارها ، تطرد كما لو كانت بين شاربي الحوت نفحة اختلط فيها الرذاذ بالضباب . أخذت أسود البحر تختفي رويدا" رويدا" . كنت ألمح ظهرا" ابتلعته الموجة، أو منتصف صدر اختفى على شكل مثقب قبل أن يغطس تحت ما بقي من الجسم الذي ستلتهمه المدحاة السوداء في أمواجها . كانت شبكة الزبد المتحرك التي رفعتها الأمواج قد أخذت تتفكك إثر كل لفة منها ، كانت كل نقطة التقاء في الشبكة تزداد دقة وانتشارا" وسط نقاط صغيرة أخرى قد تناثرت . هكذا كنت أتخيل دماغي ، خاضعا" للضغط ومنثورا" ، وكل ترابط فيه قد انقطع شيئا" فشيئا" ، فأصبح التواصل ضبابيا" ومهتزا" (ثمة زردة قد نسلت ، وشاح من غبار لم يعد يحتفظ حتى بذرات تبعثره الخاصة) ، وكان فكري يتبخر هو الآخر محاولا" أن ينتشر وفق ما كان ينقصه ، مطابقا" جسم زوجي المفرغ ، والخاوي والمبخر. مكثت أمام الأمواج ، راح الضباب يتقدم نحوي كما ترتد الأمواج متدحرجة من أعلى البحر ، فامتلأت عيناي بالبياض ، وصار الرمل وحدة متماسكة لزجة ، واضمحلت حباته ؛ ثم انحسر الضباب مع المياه ، وظهر الشاطئ ثانية ، استطعت أن ألمح بعض مزق من المدينة ، لافتات أبراج عالية تومض عن بعد ؛ وتقدم الضباب من جديد ، وهو لا يزال شديد الالتصاق بالمياه حتى ليتعذر عليه الانفصال عنه والانتشار بحرية ، كان الضباب يتقدم ويتراجع وفق إيقاع ارتداد الأمواج تماما" ، فيسبق حركة أجفاني .

خلعت حذائي وسرت بمحاذاة البحـــر . كـــان الرمـــل ينســـاب شرائط ناعمة من الزجاج بيـــن أصـــابع قدمـــي ، هـــذا البحـــر بـــلا ربيع ولا خريف ، إنه يقتصر علـــى شـــتاء وصيـــف يتتابعـــان دون إخطار ، حسب الاعتدالين الكبيرين للصيـــف وللشـــتاء وفـــق ميـــل الكرة الأرضية من جهة أم من الجهـــة الأخـــرى . كـــانت قدمـــاي تغرزان ، وكل موجـــة تريـــد قتلـــي ، تريـــد أن تطرحنـــي تحتـــها وتجرني ضاربة رأسي ، وإثر كـــل إخفـــاق جديـــد كـــانت الموجـــة تشتاط غيظا" فتـــترك بعـــض الرمـــل علـــى كـــاحلي كـــي تحســـن الإمساك بي حين تعـــود .

ثمة شيء ناعم جدا" أتى يصطدم بساقي ونفـــخ البحـــر نفســـه، الأبيض ، في عيني . انحنيت إلى الأمام وأنا أحـــاول الحفـــاظ علـــى توازني ، كانت ذروة الأمواج التي على شـــكل لفـــائف تصـــل إلـــى ركبتي . بسطت ذراعي . كان هذا الشيء قـــد تـــرك ذنبـــا" طويـــلا" في الرمل ، كأنه خط حديدي ،.فكرت في جســـم زوجـــي (تصلـــب صدري من إثر تدفق وعي أشد احمرارا" فـــي شـــراييني) ، ولكـــن هذا الشيء قد عاد ، رأيته ينحدر مـــن أعـــالي لفـــة الموجـــة ،علـــى شكل كتلة صغيرة ضاربة إلى البيـــاض ، منتفخـــة ومتفككـــة ، إنـــه جسم أعادته المياه إلا أن الضبـــاب محـــاه ، نظـــرت إليـــه يتلاطـــم نحوي وينزلق بمحـــاذاة الرمـــال ، متمـــهلا" تدفعـــه الآن الموجـــة . كانت فوهة ضخمة حمراء تفتحه من وسطه . كأنـــه طفـــل 'بقـــرت بطنه ، ولكنه كان أســـد بحـــر صغـــيرا" ، قطعـــت شـــظايا الألغـــام جسمه نصفيـــن .

فركت فيما بعد ، بالرمل والماء ، الموضـــع حيـــث مـــس هـــذا الجسم ساقي ، تقدمت بأسرع مـــا أمكـــن ، دون أن أنظـــر حولـــي ،

في الضباب الذي صار ذا شكل واحد . بدت فوهة المترو وسط هالة ، وانبسطت أذرعه الخضراء نحو السماء . كان شاب زنجي يشوي تحت سقيفة نقانق صغيرة ، كانت الرائحة في منتهى الغرابة وقد اختلطت برائحة اليود المدوخة ، شعرت بأن هذه الرائحة حسية جدا" ومألوفة يوميا" ، حتى أني فتشت في جيبي لأجد قطعة نقود . قلت : لم يبدأ الموسم بعد . كان تلون وجهه المائل إلى الزرقة قد أبرزته انعكاسات الضباب ، إني أعرف أن الزنوج ، تحت مناخ بلادنا ، تنقصهم الأشعة فوق البنفسجية اللازمة للحفاظ على صبغياتهم ، وأحيانا" يموتون ، وقد شحبت أجسادهم تماما"، من سرطان الجلد . لم يكن الزنجي ينظر إلي ، بل إلى البحر ، كان الزبد الأبيض يلقي بريقا" وسط القطن المحيط به ، وراحت شرارات مضيئة تنبعث فجأة خارج الأمواج ، كانت أجسام صغيرة جدا" تحاول أن تولد تحت أبعادنا الثلاثة ، وهي تسعى أن تنجو من تفتيت الفضاء لها ولكنها لا تتوصل إلا أن تذوب على شكل بريق خاطف ، يدور متلاشيا" تحت حطام الأمواج . تجمد صدري إثر شيء ما منهك قد امتصني كما يفعل مصاصو الدماء . ولكن التنقل إلى الجزر، سمعت ذاتي أردد كما تدفع عوامة (كان صوتي يرن في فوهة المترو) التنقل إلى الجزر يأتيك ببعض الناس ؟ لم يبد الزنجي أي التفات. تركت ذاتي يحملني الدرج الآلي الذي راح يغوص تحت التل بلا انقطاع ، ألقيت شطيرة النقانق في أول صندوق قمامة . استردني لهاث المدينة القوي بقرقرته ، إنها أمعاء عجل البحر ، عجل البحر الضخم الذي اتخذته مسكنا" . ألقيت نظرة إلى الوراء لأرى آخر موجة ، لأرى آخر جسم من الزبد الصغير والبائس .

(٥)

كان في زيارة جاكلين ــ وأنا غائصة في أريكتي أسائل نفسي ، ثانية إثر ثانية : كيف يمكنني أن أصمد أمام فراغ السهرة ــ كان في زيارتها شيء غير واقعي . كانت أمي قد اتصلت بها هاتفيا" (بدأت شبكة تواطؤ النساء حولي تلقي حبالها، ليحتجزنني بينهن ، ليساعدنني كما تدفع أسماك القرش القوية بحدبة خطمها الأسماك الضعيفة التي قد تترك نفسها تنزلق إلى دوائر الأعماق فتجعلها تعوم) ، كانت أمي قد نادتها، قلقة ، لتخبرها أني في وضع سيئ ، أرسلت أمي أفضل صديقة لي . سألتني جاكلين : ما هذه الحكاية ؟ هل اختفى زوجك ؟ كانت تلقي حولها نظرة متفحصة . بدا لي أن الفراغ والقلق كانا يرشحان من أدق رواسب طلاء الغرفة ، ومع ذلك كانت جاكلين تتأمل جدراني برباطة جأش ، وقد وضعت يديها على وركيها ، لم يكن زوجك يوما" واضحا ، ورأيت مذهولة ، بنظرتها الصريحة والصادقة ، زوجي في صورة زواجنا ، يعيد إليها نظرة تعادل نظرتها صدقا" وصراحة ، زوجي الخبيث يقف شامخا" يتأبط ذراعي بلا مواربة . أشرت بإصبعي إلى إطار الصورة ، أمسكت جاكلين الإطار ، بسبابة لا تخاف من شيء وراحت تطبطب على الزجاج وتنظر إلي مباشرة ، زوجك ، آراؤه ، هذه الحياة ، هذا الزواج ، وبلا أولاد ، غشي بصري ، وبدت شفتا جاكلين تسبحان حول الكلمات مثل ثوب لا يستوي وشكل صاحبه ، ولكنها كانت تبدو على يقين يجعلني أشك على

الدوام. تابعت جاكلين قولها: إنه من المحتمل جـدا" وقفـت صديقتـي منتصبة حازمة أمامي ، وقد وضعت مخطط حملة متناهية الدقة تقاس بالمليمتر ، وبسطت خطة حربية جديرة بأن تبث في برنامج في الفضاء ، كي تؤمن أحدا" يهتم بأطفالها حين خروجهم من دار الحضانـة كمـا أبلغت زوجها بأن يضع في الفرن طبق المعكرونة ، كي تسـتطيع أن تتدخل في حيزي بمجرد أن تخرج مـن مكـان عملـها ، لـم يكـن باستطاعتي إلا أن أكون معجبة بها شاكرة) ، إنه لمن المحتمل جدا" أن يكون زوجك قد خطفته الشرطة ، أو المافيا ، أو مجموعة قوى أجنبية، فبرنامج عمله ، ومستوى معيشتكما ، وصفقاته في الأبنيـة ، ومنطقـة الحدود تبقى مجازفة خطرة . حاولت أن أقول إن الأمر ليس كذلـك ، كنت أقاوم هجوم الأجسام الغريبة التي تثقبها جاكلين دائما" فيَّ كأنـها ضربات مثقب كهربائي ، استندت بكل قواي على نخاعي الشوكي الذي نفذ إليه اليود حديثا" وبقوة، كان عليَّ أن أحدثها عن الصـور، وعـن عمود الهواء ، وعن الظلال في الليل ، وعن أجسـام الزبـد ، وعـن الضباب فوق البحر، وعن الزنجي وعن أسود البحر (كان علـيَّ ، قبل سنوات ، أن أسمعها الصوت الذي ترجعه فضـاءات أخـرى) ، ولكن لو فعلت ذلك لاعتبرتني مجنونة ولأيقنت أنه من الحكمة ، وخير لي ، أن تدخلني فورا" مصحا" للأمراض العقلية مع موافقة أمي التامـة والمحبة . ولكن حدث أثناء ذلك شيء ما ولم يعد أمامي إلاَّ أن أصمـت وأراقب .

كانت جاكلين ، وقد وقفت أمامي ، تتابع حديثـها ، وبـدا لـي أني أراها تصغر، برأسها وبأعضائها ، كأنها بيد محنـط مـن قبيلـة جيفارو[1] فترتسم صغيرة جدا" في قعر الغرفة فـي حيـن

---

[1] وهي قبيلة هندية في منطقة الأمازون وقد اشتهر محنطوها بتصغير الرؤوس

كانت على بعد متر عني وكنت أشعر على وجهي بقوة هواء حركاتها وهي تعظ وتخطب ؛ كان صوتها ينشطر، رنانا" مفعما" بالصدى ، وكان صوت آخر في داخلها يجيب على الصوت الأول وفق خيط متناغم مستمر. مكثت مغتبطة أمام هذه الظاهرة المدهشة ، وكما الحال لدى الكلاب ، التي يقال عنها إنها ، حين يتكلم صاحبها كلاما" كله حزم وتأكيد ، لا تسمع ، ولعابها يسيل ، إلاّ تكرار اسمها الذي يدق كالمطرقة ، لغوا" ثم ريكس (اسم الكلب) ، لغوا" ثم ريكس ، جلست على قفاي ، فاغرة الفم وشعري مصقول ، وقد شعرت بذنب يكاد أن يكون ملموسا" يضرب ظهري وفق إيقاع تحدده كلمات جاكلين ، لم أعد ألتقط إلاّ الكلمة التي تتكرر ، زوجك ، يليها لغو ثم زوجك . وكان زوجي ينشطر بدوره في صوت جاكلين المنشطر ، وقد تحول ، من جهة ، إلى وظيفة فارغة، ومن جهة أخرى إلى الصورة الواقعية التي كنت أحتفظ بها ، أنا ، عنه ، ولكن على شكل ذكرى ، وبتعبير أدق صورة يستحيل إظهارها .

ليس الأمر على هذا الشكل ، استطعت أخيرا" أن أنبح ، ولكن جاكلين كانت ، كما يقال ، قد ذهبت بعيدا" ، وليس بإمكان أي شيء أن يوقف هربها إلى أبعد طرف في الشقة ، كانت الجدران تبتعد عن طريقها ، فيتسع المنظور ، ويتقلص ملاط الجدران ؛ وبما أن صوتها كان يضيع ، فإن جسمها راح ينشطر حينذاك ، كان نوعا" من جسم معاكس انفصل عنها كقشرة رقيقة غشتها من الأمام قليلا" ، فسبقت حركات يديها البلاغية ، وأخذت بهدوء

استقلالا" مسليا" ، وراحت تبطل بالتواءات ساخرة ما كانت تشرح لي جاكلين بجهد كبير . إلا أن تعابيري كانت توحي فعلا" بدهشة كلب صغير ، لأن صديقتي ، توقفت ، شاردة ، فترة . ترددت القشرة المضيئة ثانية من الزمن ، ورقصت برجل واحدة فوق الأخرى ، ثم أرسلت صوبي ما يشابه نظرة ، ورفعت ما يماثل الكتفين وسقطت كما تسدل الستارة . ولكن سنح لي الوقت ، بالتزامي بالصمت (لأن جاكلين قد لمحت نظرتي التي ربما خفت عدوانيتها فراحت تعيد طريقتها في المواساة) ، أن أعاين حدثا" . فكلمة < زوجك > التي كانت تكررها باستمرار لتدعم خطابها (وكنت أصغي إليها مشدوهة ، ولعابي يسيل متزايدا"، أنتظر أي شيء ، قطعة من السكر ، نزهة ، مداعبة من راحة اليد) ، فبتكرارها كلمة < زوجك > التي كانت تقرع في فمها كمثال نحوي قد حاولت ، بمجمل القول، أن تضع نفسها مكاني ؛ كنت أراها متوترة من الجهد الذي بذلته لتواسيني ، ولتساعدني في ظرف كهذا ، لتحبني قدر المستطاع ؛ أحسستها قلقة ، معنية ، صادقة بإخلاص يفوق تصوري ؛ ولكن وجهها قد تشنج بشكل غريب ، كما صرفت بلا شك من الحريرات أكثر مما يقتضيه تمرين ما من الطاقة والنشاط ، وبمختصر القول ، كانت واحدة من الوجوه التي تفرضها الصداقة ، بل وأبسطها : تساندني في الشدة والألم (هذا ما يفعله سمك القرش ، بحدبة خطمه ، بحركة من الأسفل إلى الأعلى) . إثر هذين المقطعين ، زوـ جك ، وقد أخذ رنينهما الصوتي يزداد قرعا" في أذني (أحرف مقفلة تلفظ من الأسنان وأخرى من الشفاه ، عادت معلوماتي اللغوية ، خلال

الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بسرعة توازي تقهقر دراستي التي تحولت إلى درجة وميض خافت يصعب تصنيفه في عالمي) ، تحت هذه الأحرف المكررة والملفوظة بأفضل شكل ، كانت جاكلين ترفض رفضا" تاما" الفرضية ، الشاقة على النفس، ألا وهي الاختفاء الكامل ؛ كانت جاكلين تدفع بزوجي إلى مسافة تفوق رعبا" بكثير المسافة الفعلية حيث يحتمل أن يكون مقيما" ، فإذا ما اجتاحته رغبة ، مقبولة إجمالا" ، في أن يقتصر من الآن فصاعدا" على هذا النوع من الوجود ، متأرجحا" في الفضاء ، متكورا" في ذاكرتي ، غامزا" في الصور ، هامسا" تحت الأمواج ، لا أدري ... كان شيء ما يطفو بيني وبين جاكلين ، شيء ما يتلعثم تحت كلماتها وكأنه حضور من هذا النوع بالضبط ، ولم أستطع أن أشرح لصديقتي ، في هذه اللحظة ، أني أفضل أن تسكت ، لتفسح مكانا" صغيرا" جدا" لاحتمال مفاجئ إلى حد ما طبعا" ولكنه ما زال مقبولا" ، لزوجي التائه .

توقفت جاكلين من تلقاء ذاتها ، متضايقة ، وما كان يهتز حولها قد توقف لحظة مذهولا"، كأن اهتزازات صوتها قد أفسحت أخيرا" ، في الهواء ، مكانا" حيث أصبح الفراغ قابلا" للسكن . أرغمت نفسي على أن أبتسم ابتسامة حاولت أن تكون محبة ، لطيفة ، ومقنعة إلى أقصى ما يمكن ، ولكنها كانت أشبه، بالنسبة إلى جسمي الرافض ، بمظاهرة فيزيولوجية تعادل غرابتها تأنق قط (شيشير) حين لم تر أليس ، في أغصان الأشجار ، إلا مجموعة أسنانه ، وبداية شاربه، ولا شيء حول ذلك . شحب وجه جاكلين وظننت أنها ستعود ثانية إلى الدلائل

والاستنتاجات، (كانت دائما" مشغولة ، بأعمالٍ كثيرة ، ونادرا"ما ترى زوجها وأولادها) ، ولم تكن تهدف في برهنتها إلاَّ أن تطلب مني أن أعي خطورة اللحظة : ربما لم يكن زوجي جاسوسا" فقط (ثائرا"، خائنا"، شهيدا" ، قاتلا" ، بطلا" ، مريضا" نفسيا" ، قديس المستقبل شفيع العاملين في العقارات) والأسوأ من ذلك ، لو كان قد اختفى ، فليس لدي أي مبرر لأعتقد أنهم سيعيدونه لي حيا" ، ولكن قد 'قطِّع قطعا" صغيرة نتنة ترسل لي في طرود بريدية قليلة التكلفة (بما أن هذا كان يسليني كثيرا" ، فمعنى ذلك أني أعرف أسرارا" خطيرة وأن دوري سيأتي قريبا") . أما زوجي ، فإن كان هو ، فلقد انتهز الفرصة ليترك الغرفة . تتالت مكانه صور مدهشة ، من أقنعة ، وستائر ، رواية مصورة كاملة انتهت باختطافه مني وبإخفائه إخفاء" كاملا" ، وقد زاد تراجعه إلى أعماق كياني وفي ذاكرتي ، كان في منتهى العمق حتى إن الهلع قد سيطر عليَّ بمجرد التفكير بفقده تماما" وبعدم رؤيته ثانية ، بالمعنى الحقيقي . ثمة شيء ما قد سال برطوبة مزعجة على خديَّ كما أن صدري قد أفلت فواقا" ، فأخذتني جاكلين في ذراعيها .

إذا افترضنا أن جسمنا مكون من مجموعة حواجز (الجلد، الأدمة ، العضلات ، غشاء الأعضاء ، الحائل المناعي ، وثمة شيء يصعب تعريفه هو الذي يحافظ في كل طبقة على بنية الطبقة التالية ، حتى القلب ، والنخاع الشوكي ، مما يجعلنا، نحن ، نتقلص تحت الأغلفة والشوائب المتراكمة ، وهي إلكترونيات متناهية الصغر تدور حول ترهة غير مرئية تشكل

مع ذلك جوهر مائنا) ؛ بل إذا افترضنا أن الحب الجسدي قد يجعل بعض هذه الحواجز تتحطم إلى أن يخرج هذا المحار قليلا" جدا" خارج صدفته (أسمح لذاتي هنا بصورة عن أنفسنا قد تبدو ولا شك سريعة في نظر جاكلين) لكي يذهب هذا المحار ، بغمدية أجنحته الصغيرة جدا" أو بما شابه ذلك ، يتلمس من الأمام طرف قرون استشعار المحار الآخر المحبوب الموجود أمامه ؛ إذا افترضنا ذلك كله فحينئذٍ يحدث شيء مثل ما جرى معي ، حين أخذتني صديقتي ، وإن كانت تجادل وتبرهن على أن مجرد التفكير في زوج اختفى بسرعة وكأنه قد تبخر يثير فيها الغثيان ويبعث فيها تموجا" عنيفا" من الدوار ، وإن كانت هذه الصديقة تحضر بانتظام اجتماعات سخيفة وتتوصل أن تأخذك إليها وهي تتهمك بعدم وعيك الغريب ـ أجل ، يحدث شيء مماثل حين تأخذك هذه الصديقة في ذراعيها. كانت جاكلين تربت بيدها شعري بلطف ، في حين ضمتني بيدها الأخرى ، دون أن أستطيع الاستسلام بطمأنينة ، إلى صدر تتجاوز فساحته قبعتيّ صدري الهزيلتين . كانت الحواجز التي تحدثت عنها تنهار الواحد تلو الآخر بعيدا" تحت كتلة متراخية من السائل الذي كان يشكّلني ، تركتها تحملني برقة ، تهدهدني ، وقد أنهكت وتفككت في نهاية الأمر ، في حين كان السائل يخرخر خارجا" عني ، ينبثق من عينيّ بشكل حسي بحت ، وقد انتشر على شكل دفء عذب ، وراح ينساب في الذراعين الرخوتين قليلا" ، وفي البطن المتعب قليلا" ، والصدر المرحب لدى جاكلين ، صديقتي الفضلى .

عندما ذهبت جاكلين ضعت ضياعا" كاملا" ، التصقت بالجدار جاثية على ركبتيّ، بلا حراك وقد فقدت صوابي ،

واجتاحتني داخل أحشائي رغبة حيوانية في أن أصرخ صراخا" 'مصما" .

أرغمت نفسي على تسخين الحساء الذي أحضَرته لي ، وأخذت أتأمل الشارع وقد بدأت ظلمته تشتد ، كما زادت عتمة السماء وتلبدها ، وكان يثقبها بريق خافت تلتهمه مصابيح الشارع . لم يتوقف الزمن مع اختفاء زوجي . إن كنت سأجابه ليلة ثانية بدونه ، فمن يستطيع أن ينبئني أن لن يكون هناك ليلة ثالثة ، ورابعة ، و هلم جرا" ؟ من يستطيع أن يؤكد لي أني لم أدخل هكذا في زمن مكونٍ من الديمومة ، والانتظام والمعايير المحددة ؟ زمن قد يرغم جسمي و فكري على قميص العادة القسري الذي 'يلبس للمجانين ؟ كنت أرى ، وقد ثبتت أمامي ، نقط ضوئية خافتة لهذه الليالي الوحيدة كأنها لمبات كهربائية تتدلى فوق ليالي سهادي ، وقد تضاعفت في مرآة السماء الخالية، ليال وليال بكاملها أنظر إلى السماء وحدي (الفضاء كلوحة ذات نسيج مهلهل ، 'يستشف منها ، وقت النجوم ، شيء أخر ، يختلف عن النهار ، والنور ساطع ، ولكن مهما حاولنا أن تشرئب رؤوسنا ، فإن الغشاء الكاتم يقاوم ، فنختنق) . بللت شفتي في طاسة الشوربة ، وأنا على يقين حسي ، وقد انقبض بلعومي ، على نقيض الشهوة ، بأن جسمي لن يدع شيئا" يدخل؛ وشعرت بطول الوقت في عروقي ، كما شعرت بتخثره في الجدران وفي الشوارع . تذكرت بعض السهرات التي أمضيتها وحدي ، بعض منها ، ما ندر ، قبل أن ألتقي زوجي ؛ وبعضها الآخر ، لاحقة ، حين كان ينهي إضبارة أو يسافر إلى الخارج

لدراسة السوق : كنت آخذ كتابا" ، أحتسي القهوة ، آكل الشوكولا ولا أطبخ ، كنت أمضي ساعات أتحدث بالهاتف مع أمي أو مع جاكلين . ولكن الوحدة التي كنت أراها أمامي ، في هذا المساء الثاني لاختفاء زوجي ، لا مثيل لها ؛ لم تكن هذه الوحدة تمت بأية صلة لذاك الزمن الحميد ، حين كنت عازبة أو مكورة في السرير الزوجي ، وروايات الرعب في يدي ، أرتجف هلعا" وأنا أنتظر بهدوء القفل يطقطق ، والباب يفتح ؛ كانت الوحدة التي أراها أمامي ملموسة ، أما الآن فهي قسرية و خشنة ، جليدية ومليئة بالأشواك .

<< 'دفنت حية !>> كان هذا ضربا" من تمارين المخيلة، أقرب إلى الرغبة (كنت مختبئة تحت اللحاف ، والمصابيح قد أضيئت كلها ، ومصارع النوافذ مغلقة خوفا" من وجه مخيف ترعبني حركاته قد يظهر على النوافذ ، كنت أقرأ خلسة هذا النوع من الكتب ، وقد أحسست شعورا" كبيرا" بالأمان يكاد يوازي شعوري وأنا بين ذراعي زوجي) ؛ كان هذا تمرينا" من تمارين المخيلة وكذلك من تمارين الرغبة : أغلق عينيي ، أمد يدي أتلمس مداعبة عن قرب شديد حاجزا" ، إنه قاس ، أملس ، ناعم ، أريد أن أنتصب على مرفقي فيصطدم رأسي بعنف ، وقد اشرأب عنقي ، وسال الدم من جبيني ، فأنزلق إلى الأمام ولكن قدماي تصطدمان ، وخلفي كله خشب ، وقمة رأسي تدق ، ولا أستطيع فتح الذراعين ولا إبعاد الردفين لأنني مكبلة من كتفيي حتى أطراف أظافري ؛ علي أن أدرك أنه من العبث الصراخ ، فليس أمامي إلا الوحدة في ذروتها. والنعش الذي كنت أرى

نفسي فيه (وأنا ضحية إنسان سادي يعذبني ، أو مجنون ، أو باحث مهووس ، أو مؤامرة أكون فيها الشابة الرهينة) ، وقد يكون هذا النعش عاريا" أو منجدا" ، تنبعث منه رائحة الصنوبر ، أو النحاس ، أو الشموع ، حتى إنني حين كنت مرهقة فكربا" ، كنت أجد في الجثة السابقة الأشلاء والعظام ؛ ولكني كنت بخاصة محبوسة ، ممسكا" بي ، مشلولة ؛ والفسحة الوحيدة التي تركت لحركاتي كانت تلك التي تؤدي بيديَّ إلى عورتي (إلاَّ إذا عقَّدت القصة ، يداي مكبلتان ، وأنا أتلوى بعنف كي أنجو من هذه العلبة الضيقة) . إن لمس أصابعي ، تلك الحركة الطفولية التي كنت أسترجعها فورا"، بضغط لحم على لحم ، يبلل راحة كفي حالا" ، كانت هذه الحركة السريعة والسهلة والتي هي بمعزل كامل عن الرجال ترفعني فوق الأغطية والتوابيت ، تنثرني بعيدا" ، فتتبعثر بعنف كل ذرة مني . كنت ، حين أقع ثانية على السرير ، أكون قد بنيت من جديد بشكل مختلف : لقد أطلق هذا التبخر كما أحرق كل ما كان يعيق حسن سير ذراتي. حين كان يعود زوجي يجدني غارقة في النوم ، عذبة وندية ، أتذمر إذا حاول إيقاظي فيما بعد . وأحيانا"، إذا لم يستهوني الكتاب كثيرا"، كنت أسمع وقع أقدامه على السلم ، كما أسمع صوت المفتاح في القفل، و كذلك نعلاه على البساط ، فكان يجدني جالسة أستند على كومة من الوسائد ، وفناجين فارغة عند رأسي ، حينئذٍ نمارس الحب .

لم تكن ليالي الحب هذه ، التي اختفت مع زوجي ، هي التي جعلتني أهتز من وقع ألم لا يمكن البوح به بسبب غيابه الفيزيولوجي ، فأبعدت طاس الحساء الذي لم أكد أذوقه ؛ كانت

ذكرى هذه السهرات الوحيدة المزيفة ، وفقدان ذاك الانتظار ، وسط تلك الكتب حيث تفتح توابيت مفزعة وساخرة : تخيلات ميتةٍ كانت في تناقضها مع أغطية السرير الدافئة توقف فيَّ تدفق النشوة الجنسية .عرفت من الآن فصاعدا" أن بإمكاني أن ألقي بنفسي على ملاط الحائط ، تاركة نتفا" من الجلد على وشاحها الأبيض بياض العظام . كان الاختلاف بين الحضور والغياب في آخر الأمر أكثر تجريدا" ، يقبله العقل قبولا" أفضل ، من الاختلاف ، الملموس والمتوقع ، بين ليلة يسيطر عليها هوس كاذب (حيث سيعود من هو موجود دائما"هنا) وليلة ، كانت أحشائي تغور من هذه الفكرة ، شأنها شأن الليالي التي صارت من الآن فصاعدا" تهددني بأن تصبح ليالي.

لو استطعت على الأقل أن أشعر به في مكان ما ، وإن بعدت المسافة ، وإن رحل نهائيا" ، وإن كان عميلا" سريا" أو مهووسا" أو نباش جثثٍ ، لو أشعر به وأحس وجوده ! أخذ الفراغ حولي يتماسك شأن بلاطة ، أو مثل إسمنت يتجمد ليصير صلبا" 'يلمس ، كما اتخذ الهواء سمة خاصة ، وكذلك الظلال والسكون ، وكان للجدران جمود مميز ، وللنوافذ وللأبواب شكل عمودي قائم بذاته . كان عاكس النور الذي اخترناه ، وهو من حرشف صناعي ، يتفق ولون خيزران الأثاث ولون سعف نبات اليكة ، قد تدلى من السقف كقطرة توشك أن تقع ، شأنها شأن كارثة مكثفة تضغط عليَّ ، وإن مجرد إبعادها (بإطفاء النور ، والغوص في الظلام) قد يدفع الكائنات المرعبة والأشباح لتتخذ شكلا" فتظهر . لم يكن لذوقي

ولا لذوق زوجي في اختيار الأشياء أية علاقة بذلك ؛ ولكن الأمر كان يتعلق بزوايا الأثاث ، و بانعكاس أشعة المصباح ، و بتجاويف الجدران ، وبلمعان التلفاز ، و بانبساط الأجزاء السفلية من الجدران ، وكذلك بحرشف المصباح ، وبالبساط : كان كل ذلك يقتصر على حضور الأشياء ، وعلى الفراغ الذي تعطيه هذه الأشياء شكلا" . إني لا أتحدث عن الذكريات المشتركة ولا عما توحي به الأشياء ؛ إني أتحدث عن تجمد الفراغ وتصلبه. كان ذلك عبارة عن طريقة فيزيولوجية ، عقلانية ، تتم وفق القوانين المعروفة في نظامي الشمسي . رحت أصطدم بالجدران وقد امتلأت بفراغ زوجي مثل لوح أسود قد يشرح لي غيابه على شكل معادلات . لقد حلّ الفراغ في المكان عينه الذي كان زوجي يشغله . أخذت الجدران تتراقص في عينيَّ . والمصباح تدلى . وصارت النوافذ متطاولة الشكل . فتشنجت عضلاتي ، وارتخت أحشائي . في حين كانت أعصابي عرضة اجتذاب داخلي . كان الفراغ يفرغني من الداخل ، كفروج هزيل ، من لحمي ومن فكري . أحسست تحت قفص عظام صدري سيولا"، إلاّ أن الهواء حولي قد جمد جمودا" كاملا" ، غير آبه بعملية التفريغ ؛ كما إن الهجمة التي انصبت عليَّ لم تقلب توازن الغرفة ، ولا ملأت ما يحيط بها ، كما لم تحدث أبسط حركة . كان جو قاس يثقل على وجنتيَّ ، وعلى ذراعيَّ ، وعلى ساقيَّ ؛ كان رماد يتحجر، فتزداد كثافته ، يصوغني في قالبه ، ثم يشدني ويسلب سمتي ، وبعد أن أكون قد ذبت بدوري إثر عصائر مختلفة ، يحتفظ بي في متحف الغياب مثل الأجساد الجوفاء في مدينة بومباي . كنت جالسة ، ونظري مثبت على

عاكس النور ، وقد كان من الممكن ، دون أن أعرف ذلك ، أن أعلق من قدميَّ بملاط السقف ، رأسي إلى الأسفل مثل مصاص دماء بائس قد فصد دماءه بنفسه ، متكورا" ، منازعا" يموت ، وكله غباء ، وسط دفء حيواني يغلفه بالسواد .

أسترجع ، وأنا أحاول أن أصف تلك السهرة ، الدوار الذي كان يجرف دماغي في مثعب ضخم ، فينقيه من ذراته المفكرة ويبث فيَّ هذا الفراغ ، بقوة جنونية توازي قوة كوريوليس . وصلت إلى النقطة الدقيقة التي انحصر فيها كياني : وهو يرقص في الظلام مثل بريق أخير لدماغي الخاوي ، بقي لمعان خافت جدا" ، ألا وهو وعيَّ بأن أشارك المصباح ، وعاكس النور ، وصوف البساط وأفق أسفل الجدار ، طريقة وجودها عينها ، أن أكون هنا مثل راسب كلسي آخر لملاط السقف ، أو كدبوس يلمع بريقا" خافتا" جدا" ، قد علق في نسيج السماء الأسود .

(٦)

أذكر أني وجدت ، في خزانة الصيدلية ، الحبوب المنومة التي كان زوجي يأخذها أحيانا" ؛ كنت آمل بتناول ثلاث حبات مدورة ضخمة أن أغفو شبه غفوة . ولكني بقيت فريسة هذا اللولب المثير للأعصاب فعلا" ، كانت عروقي وكذلك أمعائي المسلوخة ترن خارج علبتي الخاوية . راح كلب وقد ترك وحيدا" ينبح في البناية ، وبدا مسقط الدرج قد أخذ ، وسط التموج ، عمق القفص الصدري الذي يدقه النباح بالمطرقة . إن نوعا" أشبه بالنعاس قد يسلمك بفظاظة إلى أحاسيس غولية : فإذا أصيب أحد بمجرد التهاب بسيط في حلقه ، شعر بأنه بكامله قد صار بلعوما" عاريا" ، وقد 'قلب الداخل مثل قفاز ، مثل غشاء مخاطي مقشوط ورطب . تذكرت بعض القردة التي وصلت حديثا" إلى حديقة الحيوانات ، وقد رأيتها 'جنت غضبا" ، وهي تهز القضبان الحديدية حتى تنخلع سلامياتها ، تصرخ وقد فقدت صوتها ، و'سحقت أوتار حلقها . كنت هذا التلقيح المؤلف من القرد والكلب ، لم أعد أقوس ظهري ما يكفي لأعلو بعيدا" عن الأوهام . نمت وسط أحلام حيوانية . لا أدري إن كان نباح الكلب المستمر هو الذي أيقظني آخر الأمر ، أم نفث الكابوس الذي رأيته ، شدقا" أحمرَ ، نهما" ؟ ثمة أوقات فجر نتأكد فيها من أنه ليس في عنقنا أثر لمصاص الدماء ، أي نقطتان صغيرتان باللون الأحمر ، والحدقة ما زالت متشنجة حقدا" ، والعضلات متوجعة من المعركة. نضَّحت وجهي بالماء البارد،

وللأبواب شكل عمودي قائم بذاته . كان عاكس النور الذي اخترناه ، وهو من حرشف صناعي ، يتفق ولون خيزران الأثاث ولون سعف نبات اليكة ، قد تدلى من السقف كقطرة توشك أن تقع ، شأنها شأن كارثة مكثفة تضغط علي ، وإن مجرد إبعادها (بإطفاء النور ، والغوص في الظلام) قد يدفع الكائنات المرعبة والأشباح لتتخذ شكلا" فتظهر . لم يكن لذوقي ولا لذوق زوجي في اختيار الأشياء أية علاقة بذلك ؛ ولكن الأمر كان يتعلق بزوايا الأثاث ، و بانعكاس أشعة المصباح ، و بتجاويف الجدران ، وبلمعان التلفاز ، و بانبساط الأجزاء السفلية من الجدران ، وكذلك بحرشف المصباح ، وبالبساط : كان كل ذلك يقتصر على حضور الأشياء ، وعلى الفراغ الذي تعطيه هذه الأشياء شكلا" . إني لا أتحدث عن الذكريات المشتركة ولا عما توحي به الأشياء ؛ إني أتحدث عن تجمد الفراغ وتصلبه. كان ذلك عبارة عن طريقة فيزيولوجية ، عقلانية ، تتم وفق القوانين المعروفة في نظامي الشمسي . رحت أصطدم بالجدران وقد امتلأت بفراغ زوجي مثل لوح أسود قد يشرح لي غيابه على شكل معادلات . لقد حل الفراغ في المكان عينه الذي كان زوجي يشغله . أخذت الجدران تتراقص في عيني . والمصباح تدلى . وصارت النوافذ متطاولة الشكل . فتشنجت عضلاتي ، وارتخت أحشائي . في حين كانت أعصابي عرضة اجتذاب داخلي . كان الفراغ يفرغني من الداخل ، كفروج هزيل ، من لحمي ومن فكري . أحسست تحت قفص عظام صدري سيولا"، إلا أن الهواء حولي قد جمد جمودا" كاملا" ، غير آبه بعملية

ولكني تعرفت عليها فجأة ، من نبرة خاصة ، من إمالة صوتية على المقطع الثاني من اسمه ، اسمه هو ، الذي لا أستطيع تغييره ، الاسم الذي أعطته إياه من بين الأسماء كلها ، هي، حماتي ، التي تريد أن تتحدث إليه في هذه الساعة المبكرة جدا" . فليذهب إلى الشيطان ليف الأم هذا ، ليف أمومتها الذي يرن وقد غرز على خازوق متدرب بمهارة على التعذيب ، كل هذه الألياف التي ولدت زوجي بدوني . كانت قدر' ساحرة تغلي حولنا ؛ كانت حماتي ، وإني أعلم ذلك ، في هذا الوقت ، مثلي ، في وسط هذه القدر الضخمة التي تغلي ، كانت تبحث عن ابنها بين الفقاعات ، قبل أن تذوب في مشارب القلق السحرية ، للصباح الباكر الوحيد (لهذه الساعات الأربع الرمادية حيث مصاصو الدماء يخدشون الجدران ويتقبلون بصعوبة بزوغ الفجر، وحيث يرتفع مع الشمس شيء ما يدق بقدمه ، فيطفئ مصابيح الشوارع، ويحرك عربات المترو ، ويهز الخبازين ، ويفتح عين طيور النورس ، ويسدل الستائر ويجلس في المقاهي شاربي القهوة ، الذين هم ذاتهم ، وقد سلكوا الطريق نحو عملهم ، سيبددون دخان القدور بإغفالهم عدم الشعور به) . سأذهب لزيارتها ، لقد وعدتها بذلك ، أعدت ذلك على مسمعها كما على مسمع سيدة مسنة جدا" تنتظر النجدة من أي شخص ما ، ربما من جارة بعيدة ، أو من شابة رؤوف ساعدتها ذاك اليوم على حمل مشترياتها إلى الطابق الأول ، نامِ ثانية ، كل شيء على ما يرام ، سآتي لرؤيتك . قد يكون من السهل أن أزورها في الحلم ، وأن أخمد هواجسها وحدسها برؤى مطمئنة ، أن أجعلها على اتصال بما كان عليَّ، من قبل ،

أن أستشف عن ابنها بقسر إرادتي وصدأ خلاياي العصبية ؛ ولكني كنت ضعيفة جدا" أثير الشفقة ، حدَّني الزمن بشكل مزرٍ، كما حدَّني المكان والقلق ، أتخبط بثقل مثل أسود البحر في لفائف الموج . حاولت أن أتصور ، بجهد عظيم ، وقد وضعت يدي على جبينها ، اليد ذاتها التي وضعتها جاكلين عليَّ ، ولكن جاكلين تفعل ذلك بمنتهى العفوية ، فتنفذ يدها إلى ما تحت جلد جبيني وكذلك تحت جلد أولادها وربما تحت جلد زوجها .

عدت إلى غرفة نومي ، غرفتي التي ما زالت مظلمة تماما" وكنت أعرف أني لن أنام فيها ، ولكني كنت أريد أن أتمدد على فراشي ، وأن أرخيَ ساقيَّ ، وذراعيَّ ، وصدري ، وأن أهدئ معدتي ، وأفتح ثانية حلقي ، وأوسع رئتيَّ ، وأبطئ دقات قلبي . بدا لي الآن أنه ، إذا فتح زوجي الباب وخلع بتمهل حذاءه على البساط ، متّ ، فرحا" ، وغضبا" ، وتأثرا" . كنت أتلمس في الظلام كي أجد حافة السرير ، وأتقدم ، باسطة اليدين، عرضة لأن تصطدم عظام ساقيَ بزوايا المفرش ، وقد استعددت منذ زمن طويل ، منذ خطوات كثيرة ، وأنا متشنجة أخشى ألما" جسميا" ؛ تقدمت بتمهل أكبر ، وفتحت ذراعيَّ أكثر بقليل ؛ لم يكن أي خط نور ينفذ ، حتى إن الظلام كان يبدو كأن كثافته تزداد . وبما أني لم أجد السرير ، رحت أتلمس الآن أول شيء تقع يدي عليه ، من حائط ، أو مصباح كهربائي ، أو باب ، أو نافذة ، أي أول شيء مادي يتفضل بأن يعترض طريقي . ابتكرت لنفسي ذراعا" يرصد عن بعدٍ ، ورقبة تستطيل كرقبة السلحفاة ؛ أصبحت كلي رأسا" يفتش فلا يجد

شيئا" ، صرت رادارا" ، وسواري لاقطة، وحراشف ، ومكبرات صوتية بمقدرة فائقة ، و عينين مشحوذتين لرؤية ما لا يرى بالعين المجردة ؛ كنت أحس تفكك الكتف ، والمرفق ، والمعصم، والسلاميات ، وقد انخلعت بأجمعها . فتسمرت في مكاني . كنت وحدي وسط الظلام ، أنا وحدي من كل المدينة قد حرمت من الفجر ، وقد زججت نفسي بغباء في المهالك وأنا على يقين راسخ كالحديد بأن النهار قد أشرق في غرفتي .

حين يضيع المرء في الغابة ، وهذا ما 'يردد على مسامع الأولاد، عليه أن يدور نصف دورة ويمشي دائما" نحو الأمام مباشرة ، دائما" إلى الأمام ، فسيجد الإنسان المخرج قطعا" ، كما فعل المستكشفون في بطن الأهرامات اللعين . طبقت القاعدة، ولكن عدد خطواتي كان يتزايد ، ويتجاوز كثيرا" حساب الذهاب ، وكان يبدو في الظلام لامتناهيا" (صغيرا" ، حين ندخل في النظام العشري ، نريد أن نزيد العد ، ونظن أننا سنجد الطرف النهائي ؛ والأمر سيان حين ننظر في مرآتين موضوعتين وجها" لوجه فنضحك فزعا" لأننا نجد ذاتنا قد تضاعفنا ؛ فندرك أننا لن نذهب أبعد من ذلك ، ونمضي حياتنا كلها فعلا" ولن نفهم أكثر من ذلك ، كل ما نستشفه هو غياب حافات العالم ونهاياته) . لم يكن ظلاما" ولكنه مجرد سواد ، وأنا في الوسط آمل أن يستمر الزمن في جريانه ، وأن يطرأ حدث ما ، أنا في الوسط بعروقي وبعضلاتي وهي تتشتت بسرعة في لا شيء ، أنا المكونة من ذرات من اللحم والفكر تفككت فأصبحت غيوما" (تمدد فاقت سرعته توسع الغرفة ،

غرفة ضبابية وأنا بين حدود تزداد غموضا") . تأكدت من الواقع الملموس كم حلمت بنظريات الفيزياء الكمية : لا تنظر ، لا تراقب ، اصمت ، ضع وعيك جانبا" ، لقد مت ولكن الكون يعرف بدونك حالات بدائية ، ضبابيات أشياء لا وجود لها قد تعطيها رؤيتك لها شكلا" ؛ إنك الصياد على شاطئ البحر ، أو ربما أنت البحر ، أو قد تكون أنت احتمالية السمك في البحر ، ولكن ما دام لم يهز الصياد الشص ، فإن السمكة لا وجود لها . كان في الغرفة الدافع المحرك ، الدافع المحرك والظلمة . شيد جدارا" ، اثقبه ثقبين معا" ، اقذفه بالإلكترونات ولا تنظر ؛ تقفز الإلكترونات إلاَّ أن بعضها يمر ؛ ولكن ، في لحظة ما ، يخترق إلكترون الثقبين معا" ؛ لاحظ ذلك جيدا" : إلكترونا" واحدا" ، من الثقبين معا" . لا تنظر إلى هذه الكأس على هذه الطاولة ؛ خلف ظهرك ، بأي شكل يمكن أن توجد بين ضبابية الاحتمالات ، قبل أن تبسط يدك بعزم نحوها ؟ إنها تجربة عادية . تقوم بها يوميا" . فالكأس على الطاولة تقوم بدوران محوري خلف ظهرك . تتحول الطاولة إلىٰ ضباب طاولة ، كي تأخذ فورا" ومن جديد شكلا" ماديا" ما أن تنظر إليها ، ما إن تلمسها بأصابعك . لا تحاول أن تباغتها : إن سرعة النور هي الطاقة التي تكثفها . سيبقى لها دائما" شكل طاولة صغيرة مقبولة ، يومية ولا تلفت الانتباه ، بمجرد أن تترك جريدتك أشعث الشعر حانقا" لتقفز عليها . إنك تعرف ثمنها ، وطولها ، والغطاء اللازم لها ، كما تعرف البطاقة التي لصقت تحت سطحها (مصدرها ، وزنها ، المادة المصنوعة منها : وكأن هذه الطاولة جندي صغير قد وقف ينتظر الأوامر) ؛ ولكنك لا تعرفها .

ومع ذلك يبقى كل شـــيء فـــي متنـــاول يـــدك . إن الأشـــباح ، وإن ُسميت ، و ُلمست أو ُعبرت ، لا تفقد شيئا" مـــن قدرتـــها ولا مـــن ليونتـــها .

رحت أســـير فـــي الغرفـــة ، مستسـلمة . لا بـــد أن زوجـــي موجود في مكان ما ، قد يكـــون شـــفافا" ، يوشـــك أن يخـــرج مـــن العالم ، ولكنه حتما" في مكان مـــا ، وقـــد انحنـــى علـــى الأطـــراف (ما يحسن افترانسه حافة) وهو ينظر إلـــيَّ ؛ مثـــل الموتـــى الذيـــن يعرف الأحياء أنهم لا يزالون هنا ، مختبئين فـــي نبـــات الخلنـــج أو تحـــت الطـــاولات الدائـــرة التـــي تنقـــل حديـــث الأرواح ، خلـــف الأبواب، في العلية يدقون بمشط أقدامـــهم ، فـــي المطبـــخ يـــبرمون الملاعق ، في الممـــرات يجـــلون السلاســـل تـــرن ، أمـــا الموتـــى الأقل فظاظة بينهم : فيظهرون على شـــكل نفحـــات تحـــت الســـتائر في غياب الريح . أن زوجـــي ، مقلـــدا" الموتـــى ، لا بـــد مـــن أن يومئ إليَّ بإشارة ويعيدني إلى الوجود؛ ربما كـــان تلاشـــي الغرفـــة تلك البادرة ، الإشارة التي كان يراقـــب . شـــأنها شـــأن المصـــابيح الصغيرة ، في غرف نوم الأطفال ، التي تضـــيء فتنـــير المجـــرة . أو قد أتنقل في غرفـــة أطفـــال، فـــألمس أخـــيرا" إحـــدى الســـتائر ، وأفتحه على ضوء النهار ، علـــى المدينـــة ، علـــى صيحـــات أولاد المدارس ، أو علـــى صدـــت الألعـــاب المطبـــق . أو قـــد أصطـــدم بشيء دافئ ، ذي وبر ، دبق ، ولزج في بعـــض الأمـــاكن ، فـــأقول في نفسي ، إذا طلع النهار أخـــيرا" ، أليســـت الدمـــاء مـــا ســـترين على أصـــابعك ؟ وإذا أخـــذت مقصـــا" لتفتحـــي بطـــن هـــذا الـــدب المصنوع من الوبر ، ألـــن تجـــدي : تحـــت زر الســـرة ، أحشـــاء"

ساخنة و مزرقة ، ألن تدخلي يديك في العصائر العضوية ، وفي امتداد الأمعاء ؟ ألن تجدي قلبا" صغيرا" ، وفي الأعلى ، نحو الرقبة ، شرايين تنبض ، وأعلى من ذلك أيضا" ، إذا ضغطتِ وكسرتِ بعض العظام ، قد تجدين أثر أسنانٍ صغيرة لم تظهر بعد ، ولسانا" يستعد للتكلم ؟ إن الأشباح بقوة ، تستطيع أن تجننك . رميت الدب عني إلى أبعد ما استطعت في اللا شيء ..طار دون أن يحدث صوتا" لوقوعه ، بلا نتيجة ، وبلا هدف.

أرض وثقل . كان بساطنا الأبله ، تعرفت على ملمسه ، وعلى الغبار الملتصق به . كنت هادئة . استمر الزمن في جريانه وكذلك الدماء في انسيابها . لم يكن ثمة طريق 'يتبع ، ولا مكان 'يتلمس ، ولا كرة غزل تكر خيطها ليدلك على الطريق ؛ كانت المفروشات ، والجدران ، والأشرطة الكهربائية قد تباعدت أمامي كما تتباعد الأشواك أمام حصان الأمير ، كنت على وشك أن أستيقظ .

ستطيع الآن فقط أن أتخيل . حين عدت إلى نفسي ، داخل ذاتي ، حين استعادت ذرات كياني شكلا" (من كان ينظر ليَ ؟ من أين ؟) ، فركت وجهي بشدة ، أعدت تشكيله ، كان هنا ، وقد وضع فوقي ، دهنيا" إلى حد ما ولربما لزجا" ، ولكن الماء تفي بالغرض ، نزعت المادة الشمعية عن عينيَّ ، ولعقت الألياف التي كانت تملأ فمي ، وفتحت باب غرفة النوم .

(٧)

كان السرير قد استعاد مكانه ، والنافذة ركنها ، والجدران قواعدها المخادعة . وأشرق النهار إشراقا" كاملا" ، ويبدو أن الطقس سيكون جميلا" . أضأت المصابيح ، غدا كل شيء من الآن فصاعدا" محتملا" ، الكسوف والخسوف ، والجنيات الدقاقة، إسقاط الثقوب السوداء حتى داخل المنازل ، دخلت الحمام وأنا أتأكد من الباب ، ومن القفل الصغير ، قد لا يغلق ورائي . تحت رشاش الماء كنت أنظر إلى فخذي ، وبطني , ونهدي ، وقد غطتها فقاعات الصابون والماء الذي كان يجري فوقها . فتحت الستارة ، غير مبالية بتلوث الأرض ، أردت أن أرى غرفة الحمام بمجملها لأنه من العسير دائما" ، حين أكون متوترة قليلا" ، أن أقاوم صورة شفرة تشق قماش الستارة بصمت ، وبالحركة عينها تشرط ببطء (في البداية فقط) جلد مناطق جسمك القطنية ، فينفذ الرأس برهافة ، لقد أحسن سنه حتى تظنين أن هناك دفق ماء أشد برودة ، تتلمسين بأصابعك ، تريدين أن تنظمي الخلاط فتفاجئين بالماء وقد احمر عند قدميك، تضعين يدك بين ساقيك ، أنت هنا ، قد تكدرت نوعا" ما، تحسبين دورتك المؤلفة من الثمانية والعشرين يوما ، وترين الفتحة والنصل وجزأي الستارة الممزقين . نشفت جسمي بعناية. فتشت عن قارورة زيت اللوز للحمام حتى وجدتها ، دلكت كتفي وعنقي ، كورت نهدي وشددتهما ، مسدت بطني وأنا أصعد ثانية على الجوانب ، صقلت داخل الفخذين، كما ضغطت

علـى كليتـيَّ ، ودلكـت رقبتـي . رفعـت شـعري عاليـا" جـدا" وأمسكت بالمكنسة الكهربائية ، فشرقت الغبار عـن كـل الأشـياء ، عن المفروشات ، وعـاكس النـور ، واللمبـات ، ونبـات اليوكـا ، والأريكة ، والملاط ، والبساط طبعا"، عن كثير مـن الزوايـا التـي لا أراها مطلقا" ، فعندما سيرجع زوجي لـن يبقـى ولا ذرة غبـار. رششت بالأثير الزجاج كلـه ، أخـذت هـذه المـهارة عـن أمـي ، ولمَّعت كل شيء ، لم يبقَ أي أثرٍ ، ويمكـن المـرور مـن طـرف إلى آخر. أفرغت صحـن حسـاء الليلـة الفائتـة وغسـلته ، ثـم صففتـه . فتحـت الـبراد للتهويـة ، مسـحت جدرانـه الداخليـة بالإسفنج ، كما مسـحت جنـاح قطـع الثلـج ، وكذلـك التجـاويف لوضع البيض ، كما مسحت الصف المخصـص للزجاجـات ، كـل هذه الأماكن التي لا تخطر على بـال . صببـت مـاء الكلـور فـي حوض الخضار ، وصببت منـها فيمـا حولـي ، رحـت أفـرك بالممسحة ، أخذ البلاط بسيب الكلور هذا اللـون الأبيـض الكـالح ، وحتى اللمعان فلقد أذيب . قفزت مـاء الكلـور إلـى بسـاط غرفـة الاستقبال ، هناك الآن بقـع فاتحـة اللـون فيـها ، غـيرّت مكـان حوض اليوكا لأخفيـها . أفرغـت نهايـة الزجاجـة فـي الحمـام ، وضعت مناشفنا مع الأشـياء المتسـخة ، وبالحركـة ذاتـها رفعـت شراشف السرير ، وكذلك وجه الوسادات ، والغطـاء ، لقـد أحـدث ذلك فرقعة امتلأت بالغبار الطائر ، وكـانت الشـمس التـي بزغـت لتوها تطير على شكل شـظايا مـن الزجـاج، كـان الغبـار يـدور فتتلاطم الأشياء في الغرفـة ثـم تتكـور وتقـع ، مـلأت الغسّـالة الكهربائيـة .

دخنت سيجارة وأنا أجفف شعري على النافذة . كانت الشمس تعكر بغشاوة رقيقة حواف الأسطح المبهرة ، وكانت السماء الزرقاء اللامعة تنقسم مزقا" من الاهتزازات في زوايا الجدران ، راح يتصاعد غبار خفيف من الحرارة ، قد يكون الصيف . تجملت وأنا أضع المساحيق بالنظر في مرآة صغيرة، علي أن أعتني بأظافري أيضا" ، أن أكون نظيفة تماما" ولو لمرة واحدة ، وأن أخرج إلى الشارع . كتبت بسرعة كلمة ، سأعود بعد ساعة ، وثبتها على الباب بمسامير صغيرة ذات رؤوس عريضة .

قطعت عدة أمتار في الشارع . كان سيل كثيف من الشمع قد تحجز فوق المدينة فقلل النور ؛ كانت الحمام تدور على ذاتها وتنظر إلي خلسة ، ووقفت الجدران متطاولة ومنحنية . لم يكن الشارع ما رأيت من النافذة ؛ أو ربما كان ظهره بالضبط ، امتداده على القطب المعاكس ؛ ولكنه مع ذلك شارعي ، شارع كنت أسلكه كل يوم ، وكنت أفتح عليه باب البهو يوميا" ، بحركة سهلة ، ويدي على المقبض ، داخل البناية أو خارجها ، الذهاب والإياب ، وأنا التي أطوف في المدينة أرسم صورا" قد تتسع إلى حد ما حول مربع صغير أسكنه ، الطابق الخامس على اليسار . ولكن الجدران راحت تميل بعناد . الجبين على جدار المدرسة والمشرف على اللعب يعد < واحد > ،< اثنان>، < ثلاثة >، ويصرخ < شمس!> وهو يستدير (فنأخذ وضعية التماثيل ، يجب ألا نتحرك ، فتنتفخ نوبة الضحك المتواصل في بطوننا ، وتتضخم كثيرا" لتصعد حتى عيوننا ، فتتدخل في

أوعية الدموع وترغمها ، تحرق ، سنموت إذا مـــا وضعنـــا رجـــلا" على الأرض ، سنصعق إن رفّ هـــدب ، ســـننفجر مليـــارات مـــن الجزئيات) . من كان يدعني أعتقـــد أنـــي ، أنـــا ، المشـــرفة علـــى اللعب ، في حين كنت أراقـــب ، وقـــد انتـــابتني ريبـــة ، الجـــدران والحمام ستنفجر ضاحكة بسخرية منـــي ؟ كنـــت أدور عنـــد زاويـــة الشوارع كما كنت أدور وأنا صغـــيرة حـــول اللاعبيـــن الســـاكنين ، وراح الهلع يستحوذ عليَّ . كـــانت البيـــوت شـــاهقة ، صلبـــة ، قـــد تشنجت من الجهد . لم أعد أجرؤ على أن أرفـــع رأســـي . بـــدا لـــي أن السطوح كانت تنحني فوقـــي ، بمنتـــهى الفظاظـــة ، وأن أقدامـــا" ضخمة قد تقتلع أســـس الأبنيـــة لتدهســـني كمـــا تســـحق الـــدودة . رحت أبحث عن فسحة ما ، كالحديقـــة ، أو ســـاحة دار الحكومـــة ، ولكن الجدران راحت تتحرك خلســـة ، وبشـــكل مـــوارب ، لتخفـــي تنقلاتها تحت جدران أخرى ، لأنـــي كنـــت أجدهـــا أمـــامي ثانيـــة ، جامدة ولكنـــها مكشـــرة ، عنيـــدة تقـــاوم بصمـــود ، كـــانت لبنـــات القرميد قد تقوست على تحازيز المـــلاط ، والإســـمنت قـــد التصـــق بالعوارض ، ومصاريع النوافـــذ قـــد تشـــبثت بأحجارهـــا الصلبـــة . أسرعتُ السير ، ورحت أركض لأتقدم أبنيتـــها، فـــي ورشـــة بنـــاء تامة النظافة ، والتي كانت تشبه ، بشكل يختلط الأمـــر فيـــه ، بنـــاء" منتهيا" ، سيدشن في اليوم التـــالي وقـــد زينـــت بـــالزهور الشـــرفات كما زينت أرضيـــة البنـــاء ؛ ولكـــن إذا ركضـــت بســـرعة ، وإذا تداركت نهاية التعداد (وأنا أســـتدير ، أفاجئـــهم كلـــهم صارخـــة < شمس >!) حينئذٍ أرى ما وصلت إليـــه الأمـــور رؤيـــة واضحـــة : أن الشمس لم تكـــن "تجمـــد إلاَّ جدرانـــا" وهميـــة . اضطـــررت أن أتجمد بدوري متحجرة : لأني رأيت هنـــاك ، فـــي وضـــح النـــهار ،

في زاوية الشارع ، أنه لم يعد هناك جدران ، لم يعد هناك شارع ، ولا أسطح منازل ، ولا مدينة ؛ وهذه الخطوط الغامضة في الأعالي ، أما زالت حمامات ؟ ما كان يصعد نحوها عموديا"، متماسكا" تماما" تحت رجليها ، قد أوقفه القرميد أو الأردواز ، وثقبته في أعالي الهواء الوسطى إطارات تحدد مكعبات يلتجئ فيها الناس ؛ فما كان سابقا" يستفيد من المنظور كي يندفع بين حاجزين ويبسط تحت قدميَّ تصدعات الأفق ، مبعداً الأشجار والمنازل ليفسح لي ممراً ، وهو يوزع بدقة البلاط والطرق المرصوفة ، والمجاري وحافات الأرصفة ؛ فما كان يتسع فجأة ليتيح لبعض المتاجر ، وحتى لمخزن كبير جدا" فتح حديثا" ، أن يستفيدوا من الحيز ليفتحوا فيه واجهات عرضٍ، وقد ذهب بهم الأمر أن حفروا وسط ساحة حوضا" كان البط يسبح فيه أحيانا" ، كما كانت الشمس تتعلق على شكل كرة ؛ كل ذلك ، من تنظيم المكان هذا الذي يعتبر أقرب إلى التساهل ، قد ترك مكانه لواقع مختلف لا أعرف إن كان هذا الواقع مستعدا" أن يجري معي نوعا" من الاتفاق على سكن مقبول . لم تعد بناية سكني هي المعنية ، ولكن نوعا" من الضباب ارتفع يمتد بيني وبين كتل كثيرة أخرى من الضباب أخذت كلها باندفاع واحد الحيز المتبقي لها . كان هذا الضباب قد أضيء في مواضع ببقع قلت كثافتها ، وبانعكاسات احتفظت بآثار خفيفة لبعض الزوايا ، وكان خلفها أيضا" ، في كثافة أخرى ، يتحرك نوع من الأسماك و كذلك عصافير بحر منفصل ، وأناس ، وجيراني ، وسكان مدينة من ضباب . وإذا ما دنوت قريبا" جدا" رأيت كيف تخلق الشمس ما كان بناية ، ملايين جزئيات

جدران ؛ كانت هـــذه المـــادة المعلقـــة تســـتطيع ، تحـــت أصـــابعي وناظري ، أن تتشكل ثانيـــة بكثافـــة تزيـــد يســـرا" ضئيـــلا" ، كمـــا تســـتطيع أن تنبســـط ، وأن تقبـــل مؤقتـــا" أن تتجمـــع فـــي الأبعـــاد الثلاثة، وأن تشبه مـــن جديـــد ، علـــى عـــدة ســـنتمترات مكعبـــة ، شكلا" أوليا" لبيت . شعرت بحرارة الشـــمس علـــى جلـــدي ، علـــى ضباب الجلد الذي كان يعوم في أضيق حقـــل رؤيـــة لـــي ؛ لمســـت وجهي فكان في منتهى الرقـــة ، وقـــد زرت عليـــه أدق المســـاحيق التجميلية ؛ أحسست أنه قد بـــدأ يقســـو رويـــدا" رويـــدا" ، والـــذرات تمركزت على الجلد كمـــا يتكـــاثف البخـــار علـــى الزجـــاج ليشـــكل طبقة ندية . كنت أرى زاوية أنفـــي تظـــهر منشـــطرة مـــن جديـــد ، وأعلى وجنتيً يقطر قطرات صغـــيرة ، ورمـــوش عينـــيً تضـــرب كما العوارض الخشبية ، وقـــوس حـــاجبيً غـــير الواضـــح يمحـــو الحدود بين ما نرى وبين أنفسنا . ثم فتر انتبـــاهي ، فكنـــت حينئـــذٍ، أنا بكاملي ، أنحلّ ممتزجة بغمائم أخـــرى . كـــانت الشـــمس تجعـــل العالم يتبخر ، فرحت أعوم . وكانت المدينـــة تتطـــور وفـــق قوانيـــن كيمياء رفيعة ، حيث تتحول المـــادة مـــن الصلـــب إلـــى الغـــازي ، متلافية حالة السيولة كي تتفتت شيئا" فشـــيئا" وتـــهرب علـــى شـــكل غمامة . كنت جالسة على حافة بـــئر مـــن الســـحاب ، فـــي غمـــرة ضباب المدينة ، قرب وسط ساحة محتملة ، أنظر ، فـــوق ميـــاه لـــم تعد موجودة ، إلى غمائم كفيات الأقدام تشكل بطـــا" مناســـبا" جـــدا".

في الدقيقة التاليـــة ، كـــان ثلاثـــة أشـــخاص ملتفيـــن حولـــي يسألونني ، وعيونهم ترشح حنانا"، إن كنـــت حـــاملا" ، ولـــم أنجـــح في إبعادهم إلاّ إثر سرعة خـــاطر غريبـــة (ولكـــن لـــم أكـــن فـــي

حياتي البتة أكثر صحوا" من الدقائق التي كانت تتلقفني) ، أعلنت لهم بهدوء أن زوجي قد مات ، مما نزع عن وجوههم ابتسامة الملاك التي كانت تعدني بالجنة : وبكل وقار أوقفوني ، وصافحوني بقوة ، فاستطعت ، وقد امتلأت عيناي بذرات نور ساحرة ، أن أتجه وحدي وبخط مستقيم إلى حد ما نحو باب المخزن الكبير الآلي ، كان الناس كلهم يبتعدون عن طريقي .

كان الزنجي الصغير الذي استولى بالقوة على عربة مشترياتي يتقدمني مبتسما" . فاسترجعت أفكاري عن الطعام . كانت سيدة ، في جناح الأطعمة الطازجة ، تشيد بميزات اللبن التي 'تظهر إلى الخارج ما لا نراه من الداخل . ذقنا اللبن ، أنا والزنجي ، ونظر كل منا إلى الآخر ، ما زال هو أزرق اللون عبثا" ، وبقيت أنا شاحبة كليا" . كانت السيدة تفسر قائلة : يستغرق ذلك سنوات كثيرة ، يجب القيام بفترات علاج يتخللها فواصل زمنية منتظمة ، وهذا يغسل داخلكم بكامله حينئذ يتألق الجلد ، ويصير الإنسان قويا" ، فيشعر بأنه واقف على الأرض بأكملها ، وتغوص جذور الأشجار فيكم وتصعد إلى النور مكونات الأوراق ، فتجحف الأنهار المعادن التي تحتاجون إليها، العشب ينبت ، والأبقار ترعى ، والناس يصنعون منتجات الحليب هذه ويأكلونها ، درب التبانة يسري في عروقكم ، فتشعرون بالكواكب تدور في داخلكم ، وبالمجرات تتلاقى وسط بطونكم ، وبالعالم الكبير يؤثر على العالم الصغير ويقلب الزمن سيره . قالت السيدة : انظروا ، وشدت جلد خديها في قعر يديها، توقف الدم ، وابتسمت لنا شفتاها المتباعدتان كشفتي

المهرج الذي يرسم طلاء وجهه الأبيض دموعا" ؛ كانت تقول : انظروا ، هكذا نصغر عشر سنين .

نظرت إلى الزنجي الصغير فأجابني بنظره ، ولكني لا أعرف إن كان يرى ما كنت أرى شخصيا" (إن كان يراني أنا، قبل عشرة أعوام ، متصلبة وفي فترة ما قبل الزواج مباشرة ، أفضل ألاَّ أفكر بذلك) ، إن كان يرى تناسق ما كنت أنا أرى : هو ، صغير جدا"، يعوم في السواد ، وقد وصل كرائد فضاء على سلك مفتول وهو يضخ الدماء بصلابة ، وقد برزت عروقه وأمعاؤه ، مجتمعة كما تتراكم الأنقليس (الثعابين السمكية) التي تضرب بوحشية تحت جلد زقيق ، ولها زرا عينين مغشّاتين بطبقة شفافة وقد شرعتا بوصف حركات الأحلام (الأحلام وكلها تأرجح ، وترنح وهدير ، و بريق أحمر ، وطعم سائل ، ونبضات وتقلص الأعضاء ، للذين لم يولدوا بعد) . اشتريت ثماني عشرة كأسا" من اللبن ودسست كثيرا" منها في جيوب الزنجي . كنا نتابع جولتنا (قهوة ، سكر وقطع حلوى صغيرة ، رحنا نلتهم ، مختبئين بين طبقين من الفواكه ، نوعا"من الحلوى المصنوعة من البسكويت والمربى) ، حين اضطررنا أن نبطئ بسبب تجمع حول سيدة أخرى كانت تمدح سلعة أخرى ، لم يكن هناك ما يقنع فأشتريه لأعد العشاء لزوجي ، ثم راوحنا في أماكننا بعض الوقت ، نشمخ بأنوفنا ، وعيوننا تنظر إلى مصابيح النيون ، وآذاننا شاردة من الموسيقى و زائغة من الوعود . ثمة رعشة معدنية خفيفة ، انبعثت من يدي الزنجي الممسكتين قضبان العربة ، قد أتاحت لي أن أدرك أنني ، هذه

المرة ، ربما لم أكن أرى وحدي ما كنت أراه . كان شيء ما يولد في إشعاع لمبات النيون المتردد . فيومض وفق إيقاعها ، وكله حيوية ونشاط ، وكان من العسير ألاَّ ترف أهدابي ؛ ومع ذلك جهدت أن أثبت بنظري ما كان يفلت منا هكذا ، أن أعلق بدبابيس مثل فراشة ضخمة من فراشات الليل هذا الشيء المترنح الذي كان يتبدد بشكل فوضوي . كان طنين النيون يطغي على الموسيقى ، حتى يظنَّ أن الضجيج كان يأتي ، ليس من انتشار الغاز الذي يعبأ في هذه الأنابيب ، ولكن مما كان يعكر الرؤية على هذا النحو . كان لون الزنجي الشاب قد تحول إلى أزرق فاتح ، أدخل قطعة أخيرة من الحلوى في فمه وجرني من ذراعي بقوة حبَّار عملاق ، أحدثت العربة ضجيج منقلة مدرجة فابتعدنا مسرعَين .

حين وقفنا أمام جناح الأطعمة المتجمدة ، وقد امتلأت العربة ، وأنهيت معظم مشترياتي ، تكررت الظاهرة وسط البخار الجليدي الذي كان يرتفع من حوض بلغت درجته ثماني عشرة تحت الصفر ، أبدى الزنجي الشاب أسفه لأنه لا يستطيع أن يبقى معي أكثر من ذلك ، وانتظر مضطربا" أن أعطيه قطعة نقدية أجرة له على جره للعربة ؛ وحين تلامست أيدينا رأيت شيئا" باغتني ظهوره ، كان مؤلفا" من الريش والحراشف ، تعرفت فيه على تعويذة من الجنوب الشاسع[1] . شكرت عن بعد الزنجي الذي كان قد ابتعد مسرعا" ، ترددت لحظة بين الفائدة الإتنولوجية (أي المتعلقة بالأجناس البشرية ، وأصولها وأخلاقها) والسحر

---

[1] أي المناطق شبه الخالية من أميركا الجنوبية

الفني ، ونفوري من هـذه الترهـات ، فـاخترت الحـل العقلانـي : دسست التعويذة تحت كيس مـن البزاليـاء ، لتتجمـد هنـاك حتـى يبطل مفعولها . أثنـاء ذلـك ، راحـت الظـاهرة تتضخـم . كـان الحوض يرسل دخانا" وفي هذا الدخان كان 'يستشـف جسـم رقيـق جدا" ، عديم الشكل عائمـا" ، إلاَّ أن لـه نوعـا" مـن الإرادة لأنـه كان يركد 'ملحا" هنا ويكاد ألاَّ 'يرى ولكن ، إذا نظرنـا مـن جديـد بانحراف قليلا" (إما لأن الشيء قد شـعر بالثقـة هكـذا فـأحس أن مراقبته قـد قلـت ، أو أن شـبكية العيـن وقـد تـأثرت طويـلا" ، احتاجت أن تتنفس علي طريقتها بعيـدا") فإنـه يظـهر بكـل قـواه على حدود حقل رؤيتي . كانت أسناني تصطك ، مـن الـبرد ومـن التركيز أكثر من المفاجأة ، طالما كنـت أسـعى بـدوري جـاهدة ، وأنا أخبط رجليً هنا ، أن أمـيزه بشـكل أفضـل . كـان البخـار ، وقد ثقبته ذرات الزجـاج الصـافي ، يتمـدد فـي هـواء المخـزن الدافئ ويتعكر مجددا" : كان هناك نوعان مـن الضبـاب يتداخـلان فيتكاثفان في بعـض الأمـاكن أو يتلاشـيان فـي أمـاكن أخـرى ، وهما يطلقان علـى شـكل فـواق هـذا التكثيـف الأغـبر ، وهـذه الحركة الدائرية ، المتقاربة ، والمـهتزة : كـان شـيء مـا يخفـق فوق الحوض الذي بلغت درجته ثماني عشرة تحـت الصفـر ، ولـم يكن أحد يعيره أدنى اهتمام . توصلت مـن فـرط التركـيز إلـى أن أفتح (بالأحرى : ذهنيا") نوعا" من نـافذة ، أو شـقا" حيـث خفـق ستار برفق ، ثمة شيء أخذ شكلا" حسـيا" أكـثر عذوبـة ، حـيزا" من الفضاء ، خفيفـا" ، هاربـا" ينسـحب ؛ بسـطت يـدي فداعـب برفق أصابعي ، وضغط بحب على راحـة يـدي .

حين وصلت إلـــى الصنـــدوق وقـــد امتـــلأت عربتـــي حتـــى أعلاها ، اكتشفت ، علـــى ورقـــة الحســـاب التـــي أعطتنـــي إياهـــا المضيفة ، أن رصيدي مـــا زال كبـــيرا" ، ومرتفعـــا" بشـــكل يثـــير القلق حتى أني توجهت فورا" (وقد عبأت مشـــترياتي ، كمـــا تفعـــل سيدة من المجتمع الراقي وبـــدون تـــردد ، فـــي صنـــدوق تاكســـي) إلي مكتب زوجـــي .

(٨)

كنت قد تركت جهاز الحاسب مضاء" ، إثـــر مـــروري المـــرة الأولى ، كما تركت النافذة مفتوحة ، وبدا مكتب زوجـــي فـــي حالـــة الإهمال ذاتها والفراغ عينه اللذيـــن كـــانت فيـــهما إضبارتـــه فـــي مخفر الشرطة ، وربما كما كانت حالتـــه هـــو ذاتـــه ، تائـــها" فـــي مكان ما من السكاك (الـــهواء فـــي الجـــزء الأعلـــى مـــن الغـــلاف الجوي)١ (آمل على الأقل أن يكـــون هـــو أيضـــا" هنـــاك معذبـــا" يعاني ما أعانيـــه) . بـــدأت ذاك اليـــوم ، بعـــد الظـــهر ، بعـــد أن راجعت سجلاته واكتشفت أني ثرية ، أحدد الوضـــع الـــذي أنـــا فيـــه لأحلل عناصره ، وقد جلست فـــي مقعـــده ، أستنشـــق الـــهواء ذاتـــه المليء بالغبار الذي استنشقه هنا ، أداعب فـــأرة الحاســـب الملطخـــة ببصماته ، واضعة قدمـــيَّ علـــى صنـــدوق القمامـــة حيـــث كـــانت لاتزال تتعفن بقايا شطائره ، أمـــامي النـــافذة التـــي أرى منـــها مـــا كان يرى كل يوم ، الشارع الغبي والحمام الذي لاهـــدف لـــه . لـــم أعد إلى المكتب في الأيـــام التاليـــة إلاَّ لأقـــاوم الكآبـــة ، ولأعيـــش قليلا"في جوهِ ؛ كنت أجيب أحيانا" على نداءات الـــهاتف ، آخـــذ لـــه مواعيد لن يذهب إليها ، أصنف إعلانـــات بـــلا نتيجـــة ، لـــم يكـــن لذلك أية أهمية ، لأن في غيابـــه وبكـــل بســـاطة ، تتتـــابع صفقـــات البيع ، وتستمر عمليـــات فـــرز الأراضـــي فـــي منطقـــة الحـــدود ، وتتوسع عقود الشراء ، وتغذي العمـــولات بشـــكل مدهـــش حســـابي المصرفي ؛ لم يكن لكل هذه العمليات قطعـــا" مـــن مرجـــع إلاَّ علـــى شاشة الحاسب، ولكنها كانت تشير بشكل واقعـــي صـــرف ، تحـــت

تعديلات وهمية في النقاط الضوئية للشاشة ، أن زوجي ربما ، من مكان ما ، (أو ثمة ملاك حارس) ما زال يفكر فيَّ . كنت ألعب أحيانا" ، على مواقع مختلفة ، في فضاءات مفترضة قد قطعها هو لأن اسمه كان مسجلا" فيها ؛ على شبكات زمنية مختلفة أجريت محادثات طويلة مع أناس كثيرين ، كل هؤلاء الناس لن أراهم مطلقا" ولكنهم كانوا يؤنسون وحشتي ؛ وفي غضون ذلك ، في الفترات الزمنية التي يتوقف تسلسل الاتصال، بدأت كتابة قصة انتظاري . كنت أحاول هكذا ، وعلبة السجائر في الدرج دائما" ، أن أمضي الوقت وأنا ألمس مصف أحرف الحاسب ، وأن أتحمل الوضع الراهن ، وربما استطعت أن أوضح أفكاري ، وإن رحت أشك سريعا" بمقدرة قصة كهذه على أن تحدث تغيرا" في هذا المنحى . وبالفعل كانت هذه القصة تنشطر . لم أكن أكتب بالسرعة نفسها التي كنت أعيش ، ومع ذلك كانت هذه الحياة بطيئة . وفي التأخير المتراكم ، الذي بدا يقلد التفكك الزمني الذي كنت أعاني منه بعنف أحيانا" (حين تلوح الثانية الآتية بعيدة عن متناولي ، منفصلة عن جسمي : بمجرد أن يحل الظلام ، حين تنطفئ السيجارة ، عندما يتركني الشخص الصامت الذي تفصله عني ثماني مناطق زمنية ليذهب إلى عمله ، حين أضطر متضايقة أن أنزل إلى مراحيض الطابق الأرضي ، كي أشعر فجأة ، وأنا أصعد الدرج ثانية ، كما في حركة معاكسة بتدفق مد القلق ليغمرني بثقله) ، في هذا التأخير كنت أتعرف على الزمن الذي أعيشه بشكل أفضل مما لو كنت قد استطعت كتابته دون تباعد . فبدلا" من أن أفحص بدقة تجربتي ، فإن كتابتها كانت ترجعها إليَّ كالكرة في وجهي،

نقدية أجرة له على جره للعربة ؛ وحين تلامست أيدينا رأيت شيئا" باغتني ظهوره ، كان مؤلفا" من الريش والحراشف ، تعرفت فيه على تعويذة من الجنوب الشاسع (١) أي المناطق شبه الخالية من أميركا الجنوبية . شكرت عن بعد الزنجي الذي كان قد ابتعد مسرعا" ، ترددت لحظة بين الفائدة الإتنولوجية (أي المتعلقة بالأجناس البشرية ، وأصولها وأخلاقها) والسحر الفني ، ونفوري من هذه الترهات ، فاخترت الحل العقلاني : دسست التعويذة تحت كيس من البزالياء ، لتتجمد هناك حتى يبطل مفعولها . أثناء ذلك ، راحت الظاهرة تتضخم . كان الحوض يرسل دخانا" وفي هذا الدخان كان 'يستشف جسم رقيق جدا" ، عديم الشكل عائما" ، إلا أن له نوعا" من الإرادة لأنه كان يركد 'ملحا" هنا ويكاد ألا 'يرى ولكن ، إذا نظرنا من جديد بانحراف قليلا" (إما لأن الشيء قد شعر بالثقة هكذا فأحس أن مراقبته قد قلت ، أو أن شبكية العين وقد تأثرت طويلا" ، احتاجت أن تتنفس علي طريقتها بعيدا") فإنه يظهر بكل قواه على حدود حقل رؤيتي . كانت أسناني تصطك ، من البرد ومن التركيز أكثر من المفاجأة ، طالما كنت أسعى بدوري جاهدة ، وأنا أخبط رجلي هنا ، أن أميزه بشكل أفضل . كان البخار ، وقد ثقبته ذرات الزجاج الصافي ، يتمدد في هواء المخزن الدافئ ويتعكر مجددا" : كان هناك نوعان من الضباب يتداخلان فيتكاثفان في بعض الأماكن أو يتلاشيان في أماكن أخرى ، وهما يطلقان على شكل فواق هذا التكثيف الأغبر ، وهذه الحركة الدائرية ، المتقاربة ، والمهتزة : كان شيء ما يخفق

إن ما ازداد هكـــذا ، فـأصبح أكـثر واقعيـة أيضـا" ، لـهو الانفكاك . هل ذهبت في ذاك اليوم ، أم فـــي يـوم آخـر ، لزيـارة حماتي لأحاول أن أكوّن معها فكرة في المدينـة التـي كـانت تـزداد غموضا" ، عن المسيرات التي قد سـلكها ابنـها زوجـي ؟ تصفحنـا معا" دفتر صور طفولته. كان كـل شـيء يبـدو طبيعيـا" وناعمـا" أملس . كانت حماتي ترتجف بـالقرب منـي ، تقلـب الصفحـات ، وقد نحل جسمها تحت برنس حمام لـم تعـد تخلعـه عنـها ، وفـي قدميها خفان ضخمان يأكلان ما بقي مـن عظامـها وكعبـي قدميـها . لا بد أن حماتي وقد هاجرت ابنتـها منـذ زمـن طويـل ، ومـات زوجها .، وكذلك ابنها ، كانت تتساءل مـاذا أفعـل بـالقرب منـها ، وقد أكون مصدر مصائبها كافة ، قد أكون أحدا" يتبعـها منـذ زمـن طويل ويحدث في حياتها التصدعـات والمصـائب ، بسـبب عينـه الشريرة التي تصيبها دائما" . وصلنا إلـى دفـتر صـور زواجنـا . رحت أتساءل وأنا أقلـب الصفحـات التـي ظـهرت فيـها وجـوه أحيطت بأطر وبدا لي أني لم أر قط هـذه الوجـوه ، وحيـث أخـذ شكلي ، الذي نادرا" ما لمحتـه ، مظـهرا" شـمعيا" يمـاثل مظـهر عارضات الأزياء وحيـث كـان زوجـي يحـدق مباشـرة بنظـرة غريبة ، منوّمة مغنطيسيا" وزائغة بعيـدا" (كـأن مـا يحـدق فيـه موجود خلفي دائما" ينظر إلى زوجي) ، كنـت أتسـاءل أي شـيء يشبه اليوم دفتر صور زواج أمي ، إن لم يكـن يمـاثل بدقـة دفـتر الصور الذي أراه هنا ، فإذا مـا جمعناهمـا ، حصلنـا علـى دفـتر صور زواج كامل وفرح . كانت حماتي تهتز بـالقرب منـي كأنـها ورقة 'تركت في مهب الريح ، لم أجرؤ أن أنظـر إليـها مواجهـة، بدا لي أن وجهها في كل لحظة كـانت تحملـه عاصفـة معـها وأن

جسمها قد شوهته الزوابع ؛ في زاوية شـــبكية عينـــي ظننـــت أنـــي أرى برنس حمامها يرتفـــع عـــن لحمـــها الأبيـــض ويكشـــف عـــن نهديها ، وعن بطنها ، وعـــن جلـــد ذراعيـــها يتدفـــق علـــى شـــكل موجات مسطحة . فسواء من الوجه ، أم مـــن الجـــانب ، لـــم أكـــن أتعرف على شيء ، كان الخـــدان مشـــدودين ، والعينـــان غـــائرتين وما تبقى قد 'مضغ كأنه دوامـــة أوراق ، مـــن لـــب نبـــاتي ، إلـــى عروق النبات وخضابه المفتتة والمداســـة . ســـمعتها تقـــول : كـــان زواجا" رائعا" ؛ فاشتهيت أن أرى فمـــها ، هـــذا الفـــم مـــن الســـماد حيث بدت الكلمات تخرج منه ، من بيـــن شـــقوق أخـــرى ، ثقـــوب أخرى امتلأت بالأوراق الميتة ؛ ولكني قفزت علـــى الغصـــن الـــذي 'مد لي والتقينا كلانا نغني فـــي الأعـــالي ، كنـــا قرقفتيـــن هزيلتين[1] تتعرف في الأخرى ، تحت الريش الشـــعث ، علـــى طـــائر مـــألوف كما 'يفترض . أخيرا" قامت حماتي لتعـــد القـــهوة ، فبقيـــت وحـــدي مع الصور ، والمفروشات ، والســـتائر، وحصـــير عطلاتـــها التـــي أمضتها في الجزر والأقنعة التي تعود إلـــى فـــترة اهتمامـــها بـــالفن الأفريقي، أحاول أن أسترجع هنا ، وأنـــا أتلمـــس وبـــدون زوجـــي ، نقاط ارتكاز لي ، وقد طوقتني أشياء أعـــرف غيبـــا" ســـطحها الـــذي أزيل الغبار عنه ، ولكنها بقيت غريبـــة عنـــي .

حين رأتني حمـــاتي فـــي غرفـــة الاســـتقبال ، وهـــي عـــائدة تحمل فنجانين ، قرأت على وجهـــها الـــذي اســـتعاد إلـــى حـــد مـــا تعبيره أنها قبلت من جديـــد معنـــى هـــذه الزيـــارة ؛ ولكـــن ما أن جلست على وسادة مـــن الجلـــد

---

[1] نوع من العصافير الدورية

الأفريقي، ترافقها الحركات المنسجمة مع دورها الذي أحسنت فهمه ، حتى عادت موجة لتنساب ثانية تحت وجهها ، فزاغت عيناها ، وراح شيء ما يتعرج في نظرتها وبدا كأنه يطن في أذنيها ؛ كنت أظن في كل لحظة أنها ستقف ملوحة بذراعيها غضبا" كما لو كانت تتخلص من حشرة . أسرعت بشرب قهوتي . أخيرا" ثبتت نظرها عليَّ ، لا شك أنها لاحظت عجلتي لأنها بسطت نحوي يدها بحركة غريبة ، مطمئنة بقدر ما هي مجاملة ؛ هكذا أمام مزق من جمل أتفوه بها (قطعتا سكر من فضلك ، كم الفناجين جميلة ، آخر رحلة لك إلى الجزر) ، حتى إنها كانت تبدو منشرحة لأنها تستطيع (بسرعة) أن تستجمع ذاتها تحت شكل نافع ، ومقبول ، وثمين لهذه الضيفة المفاجئة التي تدعي أنها تعرف ابنها حق المعرفة . كانت أمي ، إثر اندفاع شخصي بحت ، قد اتصلت بها هاتفيا" لتصوغ لها هذا الاختفاء الذي لم نكن نعرف أن نتحدث عنه ؛ أمي الشجاعة، التي تستطيع أن تتخذ قرارات صادقة بقدر ما هي مدمرة، وكانت حماتي تسميها : أمك ، مشيرة بهذا التعبير المألوف ظاهريا" إلى كيانٍ عجيبٍ أتى يدمر ما تبقى فيها من صلابة . ففي نظرتها الواهية كنت أستشف أثر الأدوية المهدئة للأعصاب ، التي وصفها لها على عجل طبيبها غير المختص وكأنه يثبت لاصقا" سدود عقلها وحواجزه ؛ ولكني تعرفت كذلك على الأثر الذي تركه في عينها هجوم الأشباح ، هذا العجز عن تثبيت البصر (أكانت تخشى أن تشاهدهم أم ترغب في أن تراهم في كل مكان عائدين ، مثل شرارات العين التي ، ما إن يطفئ النور ، في الليل ، حتى تتابع رقصها على

القرنية). في أي شيء أخفقت ، في أية مهمة أخطأت ، أية مرحلة أهملت ، أية كلمة جارحة تركت ذاتها تقولها ، وأية كلمة لطيفة لم تقل ، لقد كان مشاغبا" ، متمسخرا" ، ولكنه كان لطيفا" جدا"، كنت جالسة أمام حماتي أراقب ما يرقص تحت شفتيها وفي نظرتها ، مما كان يجعلها تقلب رأسها بعنف إلى الوراء تبحث عن هواء تستنشقه : كان هذا خطأنا المشترك ، الثنائي الذي غنيناه على الغصن ، أننا لم نعرف أن نحتفظ بمن معنا ، هي بابنها وأنا بزوجي .

نجحت أن أدرك أمي هاتفيا" ، بين موعدين وجلستي رياضة لا أعرف من أي نوع ، واتفقنا أن ألاقيها حين الخروج من المكتب لأرافقها إلى الحمام الشرقي . كانت جاكلين قد كلمتني هاتفيا" الليلة السابقة ، هناك حتما" أحد مسؤول ، لا شيء يحدث بدون سبب : كانت صديقتي تتهمني بالسلبية وبالقدرية . وأظهرت استعدادها ، وقد وضعت أولادها في دار الحضانة ورجلها في المطبخ ، أن تتكفل بالموضوع ، أن تدق الأبواب ، فهي تعرف شخصا" يستطيع أن يجعل المسؤولين يهتمون بالإضبارة . كان عليَّ بدون شك أن أتصرف قبل أن تبادر ، مثل ما تفعل أمي ، بعمليات قد تكون مفيدة ولكن فيها مجازفة؛ وخاصة أن جاكلين (جاكلين ، الشاهدة على زواجي ، هي التي، تحت بريق أجهزة التصوير ، وسط رائحة الورود ، قد وقعت على نسخ العقد) ، من كثرة ما كررت < زوجك > ، لم تكن تظهر إلاَّ اهتماما" بسيطا" على ما يبدو وهو أن تضع ثانية وجها" على ما اختفى بهذا التعبير ، وكأنها أسلمته إلى ذكرى

غامضة : إنها كيان قد عاش معي ردحا" من الزمن ، دون أن يعطيني مطلقا" طفلا" ، وأنها لم تعرفه حق المعرفة ، غارقا" في فعاليات كانت غريبة عليها . إلاّ أنه ، من وجهة نظري (كيف البوح بذلك ؟) ، علينا ألا نثير غبارا" كثيرا" حول هذا الاختفاء؛ وأن ندع الأشياء تأتي من تلقاء ذاتها ، أن نطوي الموضوع ؛ فتتضح الرؤية ، و تحل العقد ، وتنفك جاذبيات التمغنط المرعبة: كان عليَّ أن أصبر وأنتظر عاجزة عن القيام بأي عمل ، كما الحال في التخدير ، حينئذٍ من تأثير الراحة يتمزق الضباب ، وتنبثق إحدى الذكريات من رؤية شيء لا أهمية له ، فيرجع شيء ما من مفرق طريق ، أو من تقاطع طرقٍ .

كنت أمشي ، و كانت الشوارع غائمة ، خريفية ، رطبة ؛ كان عليَّ أن أبذل جهدا" لأتذكر أننا في الربيع ، بدت الفصول تقطع حدود الأيام ، وتخلط اتجاهاتها للحصول على تتابع تشرق الشمس فيه وتغيب في مناخ ممتزج ، حيث تختصر الأزمنة بحلقة مؤلفة من أربع وعشرين ساعة . كنت أسمع وقع خطواتي من بعيد ، تخفف صوتها حفر الماء الموحلة ، كما كانت خطواتي تطرش الماء وتنعكس تحت سماء أثقلتها الغيوم . كان أحد يلهو بدق كعبي حذائه وفق إيقاع مشيتي ، يختبئ عند زوايا الشوارع ويذوب في الأصداء . كانت الشوارع تهتز ، والموجات تتجسم فتظهر على شكل أعمدة ظلال في طرف الشوارع العريضة ، وتتسلق الجدران لتختفي في الغيوم ؛ كانت الشوارع الصاخبة بالرنين لا تؤدي إلاّ إلى أطراف حلبة شفافة ، وتضطرني أن أنحرف بلا انقطاع . كنت أرى ذاتي دون أن

أستطيع اللحاق بها: شخصا" صغير القامة بالألوان ، يمشي ، فاقد الوعي تماما" في شوارع 'قطّعت متماثلة ، في قعر فقاعة بلاستيكية قد يهزّها قريبا" زلزال بلا أضرار ، فترى هذه الفقاعة حينئذٍ زوابع ثلجية تهب لأن يد سائح ضخمة تهزها ؛ كما كنت ، وقد فتحت مظلتي ومددت يدي تحت سماء حائرة ، إحدى هذه الدمى المصنوعة من مادة غريبة ، غبشاء و دبقة تنقلب إلى اللون الأحمر حين يكون الطقس جميلا" ، وإلى الأزرق حين تمطر السماء ، وتمر بألوان غريبة حين يكون الجو متقلبا" بين الحالتين . إذا كان هناك أحد في مكان ما ينظر إليَّ ويواصل التفكير فيَّ ، أفلا تستمر عروقي تنبض ، وأحتفظ بوجود أكثر من مجرد تذكار وضع على رف وترك للزمن ، بين تمثال الراقصة المرصع بالصدف ، والجوزة المحفورة الآتية من الجزر ، وتميمة الزنجي؟

أجبت أمي التي قلقت من مظهر وجنتيَّ اللتين كانتا ورقا" ممضوغا" بقولي : ليست الأحوال على ما يرام . استطردت تقول وهي تجرني إلى داخل سيارتها : وأنا كذلك ، وبما أنها كانت تدور المحرك إلى الوراء فلقد لخصت لي احتقارها النهائي لهذه الحياة ، ولهذه المهنة ، ولهؤلاء الناس ، وأعلمتني قرارها : كانت قد حجزت مكانا" للسفر بالباخرة . في الحمام ، كانت أمي وهي تتعرق من السخط ومن المشاريع تفرك جسمها بقفاز من الشعر ، وتقول إن الكيل قد طفح ، وإن الطقس موبوء، والمكان ضيق ، والمدينة خانقة ، والمكتب نتن فاسد ، وزملائها قساة متشددين ، والأحوال الجوية كئيبة سيئة ،

والأمواج في منتهى العنف ، فشعرت بأني أنام بهدوء ، يراودني شك طفولي ، أو ربما أحلم ، يتصاعد وسط البخار ، وهو أن أمي كانت تسافر لمجرد لقاء أبي ، بعد عشرين عاما" على طلاقهما . سألتني الزنجية الضخمة التي هي في الستينات من العمر : أتريدين أن أدلك جسمك ؟ أسلمت ذاتي لها كلية ، ورأسي بين ذراعيَّها ، وقد انبطحت' فوق منشفة تتضح بزيت اللوز ، وكنت أرى ، فوق ساعدي ، وسط ضباب الشعر والجلد الساخن ، عبر كواكب من قطرات الماء المعلقة ، أمي تدهن جسمها بمعجون أخضر سميك ، كنا ، كلانا ، اعتبارا" من الأم إلى بنتها ، بطلات قناع مستعار من الملاط . كان جسمها ينشطر في ضوء زجاج الحمَّام ، وقد نحت في قشرة طين ، خمسون عاما" ورونق شجرة فتية مثمرة ، وخمس نبتات خضراء تلوح لي الآن . أغمضت عينيَّ من قوة قبضة الزنجية، وقد انفتحت كليتاي ، وانبسط قفصي الصدري كأن أضلاعي وقد انفصلت عن العمود الفقري و'دفعت خارجا" ، فجعلت عظام القفص تنبثق وكل ما انسحق تحتها ، فتحررت بطني ، وارتخى فخذاي ، وشعرت بثقل و بأن أوصالي تتفكك ، فينفرج فمي ، و تسبح أعضائي ، و يصمت دماغي .

حين فتحت عينيَّ ثانية ، كانت يدا الزنجية قد ازداد دورانهما كما زادت مرونتهما ، كانت تدعك بلمسات صغيرة وسريعة مناطق الجلد الدهنية ، كنت تحت رذاذ من المطر وأحسست أني أصعد ، أصعد ؛ كانت كتفاي المجنحتان بعشر أصابع ترفعني نحو القبة ، بعيدا" ، وكانت القباب تفصلني عن المدينة ؛ وبدا لي أني سأرفرف بلا هدف على زجاج الحمَّام

المتقطِّر ثم (وقد تفككت وصرت لزجة رخوة) ، سألتصق بالسقف وأسقط من جديد على شكل قطرات على باقي النسوة ، أنفذ كالزيت إلى كل مسمة من مسامهن وأنساب في ماء استحمامهن . عادت أمي من عشرة حمامات رش ذات درجات حرارة مختلفة ، وقد 'غسلت، و'فركت ، و'دلكت ، واحمرت؛ ولكني لم أستطع أن أتأملها طويلا" ، لأن الزنجية كانت قد ثبتتني في مصب نهديها كي تفك فقراتي الواحدة تلو الأخرى . كنت أسمع طقطقة وقرقرة ، فرحت أبحث عن الهواء ، كان جسمي منتشرا" ورائي وتوافق عضلاتي قد تفككت ، كنت عمياء، 'مذابة ، وأنفي مدسوس فوق عورة لها رائحة اللوز كما كل الثنايا هنا . إنهم بالرغم من كل شيء يعرفون كيف يعيشون ، قالت أمي وهي تشرب كأس شوكولاته اعتادت أن تشربها في حين التففت في مئزري محاولة أن أعيد تنظيم جزيئاتي ، هناك حيث ستذهب (لم تكن لي بعد الشجاعة لأطلب إيضاحات) ، في هذا العالم الذي انتقته حيث كانت تنشد الأمان ، والراحة و حتى الحب ، كان هناك قلة من الزنوج (محنطي الرؤوس ، آكلي لحوم البشر ، سارقات أطفال ، ملوثي الأنهار و سحرة يلحقون الأذى) : قلت ، يا أمي (وكان هذا يكفي أحيانا") . ولكن أمي ، حين أكون في حضرتها وحتى على الهاتف معها ، كانت تمارس عليَّ سلطتها بطريقة لا يمكن أن تكون إلاَّ فائقة الطبيعة . (إلاَّ إذا وجدت تفسيرا" أكثر اطمئنانا" ، أي سخيفا" ، لهذه الظاهرة التي لها قوة لامعقولة) . فكل ما كلفني في الماضي من جهد طويل في التعمق والفهم (بما فيه واقع الغياب الذي 'قطع بشكل جراحي) ؛ كل ما كسبته بنضال طويل في ما أطلقت عليه أسرتي ما يسمى بالحس السليم والحس المشترك ،

وبالذوق والخلق ، بالذكاء والقانون ، بـــالقوة وبالتـــأني (أنـــا التـــي كنت أعرف بأي اقتلاع أحشاء دفعـــت يوميـــا" ثمـــن رؤيـــة الواقـــع الحقيقية) ؛ فكل جـــهودي ، وكـــل ازدواجيـــاتي ، وكـــل أفكـــاري التعاونية ، تجهض بلا وقف تنفيذ في حضـــرة أمـــي . فبعـــد ســـاعة ونصف معها ، شعرت بأني في السادسة من العمـــر ، مـــن الســـهل أن أحسب أني كنت أضيع حوالي سنة كـــل خمـــس دقـــائق ، ممـــا كان محظورا علـــيَّ تمامـــا" أن أســـتمر علـــى هـــذا النحـــو إلاَّ إذا أردت الفنـــاء أو الشـــيخوخة الجنينيـــة ، أي ألاَّ أبقـــىَ أكـــثر مـــن ساعتين برفقتها . في السيارة ، حين شـــغلت المحـــرك للســـير إلـــى الأمام رأيت زوجـــي يخـــرج مـــن الحمَّـــام ، والبابـــان العريضـــان يصفقان وهما يدفعان البخـــار حولـــه ، كـــان يرفـــع ياقـــة معطفـــه ويستعد ليجابه برد الخارج الـــذي لا يتفـــق مـــع الزمـــن ، فابتلعـــه الباب دفعة واحدة في عطاس البخـــار ، صرخـــت بـــأمي : قفـــي ! ولكنها أكدت لي جوابـــا" علـــى اســـتجدائي أننـــي أقـــول كلامـــا" لا معنى له ، فلسنا في يوم مزدوج ، والرجال لليـــوم التـــالي .

لم أســـتطع أن أهـــرب مـــن الســـيارة فـــي الوقـــت الملائـــم فوجدت نفسي تائهة تماما" وبلـــهاء أعـــدو خلفـــها علـــى الشـــاطئ (أمي الوحيدة بين كل من أعرف من البشـــر التـــي ، بعـــد الخـــروج من حمَّام شرقي وبعد شرب كـــأس مـــن الشـــوكولاته ، لا تســـتهويها فكرة أن تندس فورا" فـــي الفـــراش). كـــانت أمـــي وهـــي تبســـط ذراعيها وتتحـــول إلـــى نـــورس تحدثنـــي عـــن رغباتـــها ، وعـــن قصص حبها ، وعن الصدفة التي لا وجود لـــها ، وكنـــت أنتظـــر ، مستعدة لكل شيء ، مقطوعتها عن تمـــاثل الرجـــال ، حيـــن التفتـــت نحوي تقول ، وقد امتلأت باهتمام مفاجئ وقلـــق ، بـــأن الوقـــت قـــد

حان الآن لأبدأ حياتي من جديد : هل سأبقى أنتظر ، مثل أرملة البحار المقيمة على حافة الجرف وقبعتها في مهب الريح ، أن يتفضل زوجها فيعود ، من المؤكد أنها لم تربني على هذا النحو، كما لم تربيني لأتزوج باكرا" على هذا الشكل ، ولا شيء مما حدث قد فاجأها كثيرا" . قلت : يا أمي . وليس خطابها هو الذي سحقني كثيرا" . لم أكن أستطيع أن أثبت صورتها في حقل رؤيتي ؛ لم أكن أتعرف عليها . كانت لا تزال تشرح لي بنبرة 'تقطع الأذن، أنها إذا ذهبت إلى أقاصي العالم فإني أبقى في منتهى اللامبالاة (مرثية لا شيء فيها يثير الاهتمام ، وليس لها من قيمة إلا أنها تنوع حوارنا الذي لا ينتهي) ، وكنت أحاول جاهدة باستمرار أن أثبتها تحت عينيَّ . كانت تتقلص ؛ إني أعرف آثار التعب على الرؤية ، وكان من الطبيعي أن تتقلص في الخلف ، كما فعلت جاكلين منذ فترة ؛ كنت أستطيع بالطبع أن ألمسها بأصابعي ، لو لم يكن هذا التماس يجعلنا كلينا نقفز ، ولكني كنت أرى أمامي شخصا" آخر يتكثف ، نحيلا" ، مغضنا" (وفق المعنى البدائي للكلمة) وأقل صلابة : نوعا" من مكثف الأم ، مشروبا" أمويا" يرتجف وقد تخثر في قارورة صغيرة ، وكان صوتها الخشن ، الذي يجهد عبثا" في أن يرن كساق السنديان ، قد يجعلني أبتسم لو لم أرتجف حزنا" . كنت أستطيع أن أمسكها في باطن يدي وأحبسها في علبة 'زينت بالصدف ، أو أحصرها في فقاعة بلاستيكية كي أسقط الثلج ، بدوري ، وأثير الزلازل . لم يكن الأمر يتعلق بسفرها (بقيت هذه الفكرة ثانوية ؛ لم 'تلفظ ولكنها متوقعة ، طالما عودتني أمي على هذا النوع من التحولات ، ومن زوايا متنافرة في الرؤية ، ومن

قرارات حاسمة جعلت من حياتها وكذلك من حياتي إلى أن تدخل زوجي ، قطعة مخرمة بشكل جنوني وكلها زخارف مثقوبة) ؛ ولكن من هذه الطاقة المعذبة ، التي تبدو تندفع منها مثل البريق الأخير لتلك النجوم ذات الكثافة القصوى التي تشكل وضعا" استثنائيا" ، والتي يحفر موتها ثقبا" أسود في الكون . كان صوتها يصلني آتيا" من بعيد جدا" ، دون تأثير فوري ، دون رأي يستطيع من الآن فصاعدا" أن يمسني ، كان صوتها نهما ورخيما" وكأنه ينبعث من أحد أسود البحر التي كانت قد حطت هناك (كان هذا الأسد يصر من تصلب مفاصله التي ما زالت تختلج قليلا" من الزعنفة لتختلط ، وسط أمواج جديدة ، بأسود بحر أصغر منها لا تلبث أن تغرقها) . قلت ثانية : يا أمي ، ولكن لأبدأ جملة لم تكن ترد . أخذت أمي تعيد شكواها عن منتهى لامبالاتي البنوية ، هل أرغب في أن أعرف عنوانها الجديد ، ساعة الرحيل ، اسم الباخرة ، ألم ألاحظ المناخ المرهق الذي استقر هنا ، والسلبية ، والكآبة ، وأسوأ الأمور؟ قلت : يا أمي ، وسمعت ذاتي أصيح أسفي على أبي ، وكان ذلك أغبى مبادرة في هذا الظرف ، ولكنها كانت تلخص تلخيصا" وافيا" حالة الغضب الحزين الذي أعيشه . إلاَّ أن أمي لم ترد أن تجيبني . كانت تنظر إلى البحر ، وكان من العسير عليَّ أن أعرف إن كانت تقرأ فيه ماضيها ، أو ترى فيه مستقبلها . لم تعد تراني وكنت أنا أراها ، منتصبة واقفة ، كأنها خط أسود على الأفق المتساوي البياض ، وقد انطلق شعرها البني المصبوغ ، ليختلط بلون السماء الرمادي . كانت طيور النورس تضحك ساخرة وهي تحلق فوق رؤوسنا وتذرق بمهارة ،

موسعة على شكل حلقات طيرانها البيضـــوي الشـكل الـذي كـان يحمل إلينا معه نتانة أوساخها ، وكانت الأمواج تطغـــي مـن حيـن إلى حين على صيحاتها ، وتمـــلأ لمـدة ثانيـة ضخامـة الفضـاء فتريحنا من فساحته ، كما لو لـم تكـن أدمغتنـا ذاتـها ، لاسـتراحة قصيرة ، إلاَّ ضجيج الأمواج هذا الزائل والمجلجـــل . كـان يعسـر عليَّ دوما" أن أقدر درجة النسـيان النسـبية ، والتخديـر أو الفـراغ الذي قررته أمي الأيّم ، الغد يوم آخر، أن توقـف زالـق تعاسـتها ؛ ولكني أدركت فجأة وأنا أنظر إلى أمي التي تنظـر إلـى الأمـواج ، أنها لا تهتم مـن الآن فصـاعدا" لا بزوجـي ، ولا بمسـتقبلي ، ولا بأطفالي الأموات ، ولا بحياتي الراشدة ولن تضـع نفسـها مكـاني ، كما لم أفعل ذلك أنا في الماضي ، ولم أضع نفســي مكانـها .

(٩)

نظمت أمي حفلة بمناسبة رحيلها ، ودعتني إليها مع من أرغب في اصطحابه ، وفهمت أنها تشجعني على الجلوس وحدي على شرفات المقاهي ، وعلى التنزه بمظهر أبدو فيه جذابة و تائهة ، وعلى الاهتمام برفاقي القدامى ، وعلى نشر إعلان ، إلى ما شابه ذلك ؛ ناديت جاكلين لتساعدني (جاكلين ، صديقتي التي لا 'تحتمل والغالية التي لا يمكن تقديرها بثمن ، الشخص الوحيد الذي أستطيع حقا" الاعتماد عليه ، فهي متصلبة الرأي تصلبا" أعمى فيما يخص الأمور التي تراها ثابتة ولن تعيد النظر فيها : هذا المظهر من الواقع الذي ينسجم مع الجزئيات المكعبة) . أحسست سريعا" أني لست على ما يرام . كان للعشاء موضوع: حفلة وداع بمناسبة رحيل والدتي ، أي ، بشكل مهذب ، نأمل من هذا الاجتماع الذي يبدو فرحا" ، تعزية مستحيلة ؛ فما إن أخذنا المشروبات المقبلة قبل الطعام حتى بدأت أنفعل . كانت أمي قصيرة القامة ، نحيلة ، حسنة الزينة ، جميلة حقا" ، تستلم الهدايا وتوزع القبلات ، وتلبس ثوبا" جديدا" يستبق التقليعات الشائعة ، وتدير الأحاديث ، وتقدم المشروبات ، وقد احمر وجهها إثر عناية بالجلد قامت بها بسرعة قبل ساعة من وصول المدعوين ؛ كانت فكرة رحيلها قد هدأتني كثيرا" ، بغتة ، حتى كدت أن أذوب من دموع التعزية والسلوى ، فتأثرت تأثرا" بالغا" لأنني أراها للمرة الأخيرة تجشمني مشهد الرقصات والقفزات التي طوال خمسٍ وعشرين سنة قد أذهلتني

وأصمتني . ولكن كان هناك موضوع آخر ، يكمن ، إلاَّ انه ’يسمع من حين إلى حين . كان الكل يعرف أن صهر المضيفة قد اختفى . خاصة وأن أمي قد دعت حماتي بدافع من طيبة نفسها ؛ والموضوع الذي كان يهمس به أصبح يقال بصوت عالٍ . كانت حماتي ، مرتبكة ومهذبة ، تتمالك تماماً" كما وجب عليَّ أن أتمالك : كانت تحاول عبثاً" أن تشارك في الحفلة ، إلاَّ أن يدها راحت ترتجف وهي تمسك كأس الشمبانيا ، وعيناها تلمعان بقوة في زوايا أجفانها المحمرة ، كانت تجيب بمواربة ، كانت لائقة ، كئيبة ، ومرتبكة بانسجام . كنت جالسة في زاوية الأريكة ، و جاكلين لا تفارقني بنظراتها ، وكنت أرى مسبقا"، وبتمام الوضوح (مثل تلك الساحرات الشابات وقد جعلتهن موهبتهن التي لم تصقل يغمى عليهن في أوقات غير ملائمة البتة) ، ما سيشغل ساحة المشهد : أمي ، وأصدقاءها ، وزملاءها وحماتي ، منتثرين على البساط المخضب بدمائهم ، تحت صراخ جاكلين التي أنقذتها من هذا المصير طفرة من طيبتي . كانت أمي تهمس في عنق أحد المدعوين ، لا شك أنها كانت تتحدث عني ؛ كان ثوبها المصنوع من السيليكون الأزرق يطابق بدقة شكل جسمها ، كما أن حداد حماتي الغامض كان يلائم كلتيهما بمنتهى الروعة ، وبمنتهى السيولة الأنيقة ، حتى إن غرفة الاستقبال كلها كانت تطقطق من مزيج رذاذ حضورهما ، مثل حوض أسماك منمنم ، حيث من الممكن أن تؤدي فيه حيتان مائيتان وسط الفقاعات رقصات ثلاثية الحركات ، كان ثوب أمي ، وحده ، قد يكفي ليجذب انتباه الجميع ؛ لست أقول الآن إن أمي كانت تلبس ثيابا" مبالغا" في أشكالها وفي

ألوانها أو إن هذه الثياب مثيرة جـــدا" بشـــكل فـــاضح بالنســـبة إلـــى عمرها ؛ ولكن ، ما إن كانت تحـــرك أحـــد أهدابـــها حتـــى يـــبرق الثوب وقـــد قصتـــه الأضـــواء : بـــدت قطعـــة مـــن الثلـــج تشـــق السيليكون من كل صوب ، فاستعاد لونـــــه الرطـــب ، كمـــا اســـتعاد ألوانه القازحة و شفافيته ؛ كان نـــــهدا أمـــي ، ووركاهـــا ، وبطنـــها تتقلص كلها مرتجفة من هذا التمـــاس . كـــان يـــتراءى لـــي (ليـــس المرء مسؤولا" عن حبه لـــــهذه الـــرؤى) ســـجاد غرفـــة الاســـتقبال ينفتح على بحر فـــيروزي اللـــون تقطعـــه جبـــال جليديـــة عائمـــة ، تغوص فيه أمي تحت عيوننا الفرحة ، فنلمح كلنـــــا ، عـــبر حرشـــف ثوبها ، تقوس ذنب جنية البحر التـــي جمدتنـــا دهشـــة . زلقـــت فـــي أذن أمي المنتصرة : يا للشيطان مـــــن أيـــن جئـــت بـــهذا الثـــوب ؟ ولكن بدا أنها في ذاك المســـاء لـــم تكـــن تعـــيرني أدنـــى اهتمـــام . رحت أتخبـــط ســـابحة بيـــن الأســـماك الأخـــرى ؛ كـــانت غرفـــة الاستقبال تتحرك بجملتها وتبتعد عني ، فـــانحرفت ، وقلبـــي وجـــل، تحت الغثيان المتزايد من دوار البحر في الغرفـــــة . كـــانت جـــاكلين تطبق عليَّ بنظراتها كالســـدادة . فـــهربت .

توصلت ، من فرط ما مشيت في الشـــوارع ومـــن شـــدة مـــا أحسست الأرض تحـــت قدمـــيَّ ، والقمـــر والنجـــوم مـــن فوقـــي ، والهواء الندي يملأ رئتاي حتى الأعمـــاق ، إلـــى أن أعيـــد تـــوازن الجدران . إن ما حزَّ في نفسي ، ليس أنـــي تحولـــت إلـــى مخلـــوق يعيش في حفر في منتهى العمق (إلى نـــوع مـــن هـــذه الحشـــرات الشفافة التي تبقى ضاربـــة إلـــى الحمـــرة ، تحـــت ضـــوء كاشـــف لغواصات الأعماق ، لزجة تثير القرف إلـــى حـــد مـــا) ؛ بـــل هـــو

أن أتأكد بأم عيني، بالنسبة إلى باقي الناس ، أن الشعور الوحيد الذي أثاره زوجي باختفائه كان الانزعاج (وكذلك حال رخويات لجج البحار) ، وأن من الآن فصاعدا" يبتعد الجميع عني ، بضربات صغيرة حذرة من الزعانف ، وهم يدعون بأنهم يرغبون في أن يتذوقوا سكون الأعماق . لو كنت أستطيع ، وصوتي قد تبدل بإباء ، وعيناي على شفة الهاوية ، أن أعلم أهلي ومعارفي بيوم دفني ، أن أنشر في الجريدة إعلانا" بالاعتذار عن الزهور والأكاليل ؛ لو استطعت على الأقل، مثل حماتي ، أن أوحي بأن الغلطة كانت في مكان آخر ، وأن أبعد الحرج ، وأظهر حدادا" زائغا"، منعزلا" ، متفككا" ! كان عليَّ أن أعود فأصرخ زوجي غائب ، وأسحق بصراخي غضاريف المدعوين الدماغية .

رأيت حينئذٍ وأنا أبتعد ، ظهر الشارع ، هذا الشارع المقطع على شاطئ البحر ، الواقع ليس في الضاحية تماما" كما إنه ليس في أحياء السكن الصيفية ، إنه شارع بغيض ، فيه أشجار صنوبر بين المصابيح (أنا الفتاة الصغيرة ، سكون الشارع ، تقطيع الأسطح المتباعدة بعضها عن بعضٍ ، الأشجار السوداء والخشنة كالمومياء ، والممر الصغير الواجب اجتيازه حتى الباب ، دقه ، بسرعة ، كي يفتح : قبل أن يتعلق في ظهري إصبع نحيل شحذ من أرومة ــ فإذا ما استدرت إلى الخلف ، وقعّت حكم إعدامي) . يوجد غرفتان ، واحدة لها ، وواحدة لي ، وغرفة الاستقبال هذه ذات الواجهات الزجاجية ، حيث يقطعها الآن المدعوون . كنت كلما اقتربت ، سمعت

جملاً" غنائية وضحكات تعلو ، في حين تضعف نفحة المحيط ، الذي بدا عمقه يزداد من تحتي ، كما لو أن جاذبية البحر تخترق الأرض بالاهتزازات : طاقة

'نشحَن بها مع شعور حدسي ، إلى أن نلمس عنصراً" من عالم آخر ، حينئذٍ 'نصعق في مكاننا (هكذا ، في الجسم ، فإن وجود يقينين متجابهين ، يفرغان مادة الأدرينالين في الفسحة التي بينهما) . كان ظهر الشارع مثل ارتداد البحر ، ليلة فيضان : كنت أرى ، كأنه قفاز قد قلب ، صورة شارع عكسية: كنت أسير في قاع المحيط وأحاذي الجدران العارية ، والبوابات المتآكلة ، وبرص السيارات المزبد ، والبساتين التي عاثت فيها الأخطبوطيات فسادا"، وأشجار الصنوبر التي حفرتها أصداف تمص الدماء (النسغ قد 'ضخ ، والأغصان الجاثية تشكل أرصفة صخرية) ؛ فللإبحار فوق المناطق المقسمة ، وجب معرفة مياه المتاهة الضحلة ، كما وجب سماع دفة القيادة تلامس التسقيفات ، والصالب يئز في خطوط المزاريب. ولكن خطوتي كانت رشيقة ، نشيطة وسريعة ، كانت المياه تحملني ؛ والبيت ينزلق نحوي (بيت طفولتي ، شقه النور كسفينة 'شقت من صدرها ، وهو يتنفس من أبواق المداخن) . كانت فقاعة هواء غرفة الاستقبال ترسل بريقاً" أخضر ، كان ذلك حوض سمك معكوسا" وكنت، أنا سمكة القرش ، الأركة ، الفك ؛ دفعتني زعنفتي ، فرحت أطوف في البستان وسط الطحالب البحرية ، والملفوف المتبدل ، والجزر البحري ، وذوات الألف ــ هدب و مقرن ــ الذنب وقد اختلطت الأمور عليَّ فلم أعد

أميز الخارج عن الداخل ؛ كنت سأكسر الزجاج وسط اجتياح المياه والأسنان والصرخات . كنت أرى جاكلين ، وقد التصق أنفها بزجاج النافذة مثل فتاة صغيرة ، بمنخارين مستديرين وسط هالة ؛ كنت أرى كل هؤلاء الناس يتنفسون في الداخل ، ينحلون بسرعة في النور تحت ظل أشجار الصنوبر ، كل هؤلاء الناس الذين يتحركون في سكون في كثافة غرفة الاستقبال الشفافة ، والذين كانوا يتحملون بكل هدوء، في انزلاق الأشخاص ذاته ، المتواصل دائما" فوق وسادات هوائية، غياب زوجي . توقفت أستند على جذع شجرة ، متقطعة الأنفاس، لا أدري ماذا أفعل . كانت شجرة الصنوبر فوقي ترسل صرخات مكتومة ، وتحتك أغصانها بعضها ببعض ، ويستسلم القمر لشبكة أوراق الصنوبر المتلمة و الحادة . فمتعة الصنوبر الوحيدة في النسيم ، وأنغام الموسيقى التي تصدح من خلال الزجاج ، وصوت البحر الرخيم في صدري ، هذا كل ما كنت أسمعه . كنت أحتاج إلى أحد يأتي ، ليأخذ بيدي ، ويتحدث إليَّ ، ويطلب مني أن أعود .

جلسنا إلى مائدة العشاء . كان يبدو أن لا أحد قد انتبه إلى غيابي ، إلاَّ أني أدركت من نظرات بعض المدعوين المقطبة ، أنهم اضطروا أن ينتظروني للعشاء . بينما كانت الأطعمة، وقد فتحت أفواهها على البقدونس ، تدور بين المدعوين ، همست جاكلين في أذني تقول لي : إن أمي سترحل ربما لأمد بعيد ، أليس بإمكاني أن أبذل جهدا" لأقول لها كلمة طيبة ، بل حتى لأساعدها كما تساعد الفتاة أمها التي تعيش معها ، وربما أستفيد

من هذا اللقاء الأخير لغياب لا نعرف مدته لأتقرب منها ؟ وعدتني جاكلين أن تفعل ما في وسعها لتعطي إشارة الرحيل فأبقى وحدي مع أمي . كنت أسعى جاهدة لأفصل قطعة السمك في صحني عن مرقها الهلامي ، وأتجنب النظر إلى جاكلين ، أحسست أنها تبتسم لي بحنان ابتسامة مشجعة ، لا بد أنها تنظر هكذا إلى أولادها حين يجهدون ، مرتاعين ، لقراءة قطعة موسيقية على الكمان ، أو حين يبلعون ، وهم يفوقون ، البيض المقلي مع الملفوف ، أو حين يجدون وهم يتخبطون هلعا" الحل في لعبة الحذر . عاد كل ما حولي يتمايل ثانية كما تحت أمواج من الهواء ، وبدا لي ، لو استطعت أن أنظر من الواجهات الزجاجية لغرفة الاستقبال ، لرأيت أن الموج في الخارج قد خرَّب كثيرا" ، لأن رائحة اليود القوية قد استطاعت أن تنفذ إلى الداخل . لو وقفت وسط العشاء ، وفتحت الستائر كاملة ، لكشفت للمدعوين جسامة المصيبة ، فالبستان قد جرَّحته الأمواج وقطعه الجزر إربا" إربا" ، والصخرة 'سلخت وسط حفر بحرية ، وانهار أساس المنزل ؛ فخرج المدعوون بخطى وئيدة، وجلسوا على أشجار الصنوبر الواقعة ، ورفعوا أعينهم نحو سماء مثقلة بأعاصير ترجع علينا أمواجا" متدفقة . ومع ذلك كانت الأحاديث تدور ، ومنذ عدة دقائق كانت أمي في ثوبها الغريب تحاول أن تغير مجرى الحديث المقذع ، لم تكن جاكلين بالضرورة مدعوة مثالية ، ولم تكن أمي تعرف أي موقف تتخذ، كانت مذنبة قطعا" بتركها البلد ، حين كانت صديقتي تطالب بأن نوحد جهودنا جميعا" ، وأن نلغي الحدود ، ونقبل الزنوج ، ونلاحظ بأم أعيننا مظهر السكان المتاخمين لنا . وأخذ مدعو أقل

تمدنا" يلوح بـــالجريدة ، وألغـام خرجـت عـن خطوطـها فقتلـت مجموعة من أسود البحر ، والتي كـانت أجسـامها الهزيلـة تعرقـل بشكل مزعج أرجل المستحمين الذين احتـــذوا مجـاذيف مطاطيـة ، كانت أسود البحر بشكل عام موضوعا" يتفـق عليـه الجميـع وهـذا ما حاولت عبثا" أمي أن تعيده إلى المناقشة فـــي حيـن شـرع أحـد أعضاء مجلس البلدية (الذي عرف زوجـي حـق المعرفـة) يـهدد بانسحابه من المائدة إذا لم يكبح كل مـــن جـاكلين والمدعـو الآخـر قليل الذوق جماح خيالهما الفظ وغير اللائق . كـــانت أمـي مغتاظـة من عدم الاهتمام بها فصرخت فجأة (هكذا تنهار آخـــر مـزق مـن قناعاتنا) بأن عرّافتـــها (أمـي غارقـة فـي أعمـاق كـرة مـن الكريستال ، وزنجية شاذة تربت علـــى كتفـها) كـانت قـد تنبـأت لها، لم أستطع سماع البقية ، نهض عضـو مجلـس البلديـة ، وفـي الفوضى المباغتة ، خلـت أن الطاولـة ، وقـد جلـس إليـها أرواح ضاربة تعلن عن حضورها بعـــدد مـن النقـرات ، سـتبدأ بتعـداد موتانا وتطير وهي تنثر الزجاج رذاذا" ، ولكـن الأحـداث لـم تجـرِ على هـذا النحـو . بقيـت جالسـة ، يداعـب فخـذيَّ الضوضـاء المتموجة تحت غطاء الطاولة ، وردفاي مسـمران ، وثملـة قليـلا"؛ ولم تكن الطاولة ، وقد 'ثبتت جيـــدا" تحـت مرفقـيَّ ، هـي التـي تدور ، ولكن كل ما كـــان حولـي ، فـالمدعوون يـدورون وهـم يرقصون ، وكذلك يدور بريـق الأنـوار علـى الجـدران يعكسـها ثوب أمي السائل ، وعاكسو النور يـدورون كرقـاص السـاعة مـن تنغيم جاكلين ، وكذلك وجه حمـاتي المرتـاع ، التـي ربمـا كـانت تنتظر فقط طبق اللحم المشـوي. وبـدا لـي أن كـل هـذا الـهرج والمرج لم 'يثر إلاّ لهدف واحد : إخفاء غياب زوجـي تحـت قنـاع

الصخب والصيحات ، ردمها بالهواء المتحرك وبحركات الأذرع تلك الهوة الجنونية التي تركتها وراءها ذراته المختفية .

كنت أرى الوجوه ، كبيرة وحمراء اللون ، والأفواه بنفسجية ، والأيدي قريبة جدا" مني ، كنت أرى مفصلا" ، كما في مجهر بأشعة تحت الحمراء ، الدوافع العصبية تنبثق من الدماغ ؛ وكانت الأجسام 'تقذف من الأمام ، والسوق تقوست ، وجذوع الأجسام تقطعت من الغطاء ، وكانت الحركة العظيمة هي التي تحمل معها كل ذلك ، فهي التي تسبب كل هذا الاهتزاز و'تبقي ذرات المواد بأكملها في توتر : كان ضباب من العرق ، والقرتين ، والقشر الذي تفوق رقته الطبقة السفلية من الفطر ، يعوم بين الأجسام وقد أشبع بالكحول الذي يرشّه اللعاب وقت الكلام ؛ والمفروشات ، تتفكك رويدا" رويدا" على شكل رماد نباتي تحت أسنان القرابيات الخشنة ؛ والخمرة تجمعت و'حبست في كؤوس عليها بصمات الأيدي الدهنية ؛ كان غاز الفحم يثقل الهواء ، وكل ذرة من ذراته تحتل بانتظام ، في كل زفير ، مكان ذرتي أكسيجين ، فإذا ما استمر الأمر على هذا المنوال نصبح قريبا" كتلا" مزرقة ، فيبطئ نبضنا ، وينتفخ قلبنا ، ويملأ السواد لساننا . كانت كل هذه الذرات تختلط في أنبوب اختبار غرفة الاستقبال ، وكانت عملية كيميائية جريئة تمزج موادا" جديدة : جزء من بليون المتر من رمش الأم وجزئية غرامية من الأريكة (من السمك ، ومن السيليكون ، ومن المستشار) تلد فرضية صغيرة جدا" ، إمكانية شيء ما معلق في الهواء أو مطمور في البساط ، أهداب تضطرب بأمل

محتمل ؛ وكنت أحضر بلا حراك ، منهكة على الأريكة ، هجوم إرادة خشنة فظة ، متدفقة هنا كالرياح الجليدية ، لا أدري من أية نافذة أتت ، أو من أية مدخنة ، أو من أي محيط ، فكانت تطرد فورا" نواة الوحش الذي في منتهى الصغر وتمنعه من أن يتكون . ولكن كان يبدو أن لا أحد من المدعوين يهتم بهذه المجزرة ، ولا بريح الشمال التي يقذفها تنين الخزانات هذا ، الذي كانت أنفاسه تنساب مع ذلك ، بدون انقطاع ولا رجوع ، بين ذرات فضائنا .

حينئذٍ خيل إليَّ أن أمي ، وجاكلين ، ومستشار مجلس البلدية ، والمدعوين (زين الجميع غبار اضطراب لم يكن إلاّ عطاسا") لا يخفون شيئا" وراء جدلهم : فما كانوا يناقشونه يشغلهم فعلا" إلى حد ما ، ولم يكن الموضوع يخص زوجي ، ولا الوحوش والمسوخ على وجه الدقة أو التنين . كنت أرى في غمام حولهم رسم بعض أفكارهم ، فاصل ما بين الأجسام، والحركات والكلمات ؛ كانَ ضباب بحت من الجزئيات يتكاثف أحيانا" بأشكال حلزونية بيضاء لا تلبث أن تختفي ، وببريق رطب ، حيث كان يستطيع أن يعوم على فترات أشبه بذكرى عن زوجي ، وكذلك تأنيب ضمير حدث عن تقصير أو عن ضيق (وهذا ما 'خيل إليَّ أني شعرت به في بداية السهرة) . ومع ذلك كان النقاش يستمر ، والأشكال الحلزونية تتجنب بقوة دوراتها حاجز الفراغ هذا ، والأجسام تتحرك دون قفزات كثيرة. وأعتقد أني أدركت ، في ما كان فيهم يقاوم التمزق ، أن لا أحد يتذكر بدقة زوجي أكانت أمي، أم جاكلين ، أم أي واحد

من المدعوين (ربما باستثناء حماتي) . لا شك أنهم يعرفون أني كنت قد تزوجت ، وأن زوجي قد اختفى ، وأني أتألم طبعا" من ذلك ؛ ولكن من البدهي أنهم كانوا عاجزين عن التوقف هنا؛ لم يكن ’يسمح لهم أن يأخذونا كلينا ثانية في سير حياتنا الذي انقطع . كان هذا ضربا" من الفيزياء ، من فيزياء اللحظة ، تلك التي تصف كذلك قوانين الذاكرة ، والغياب ، والاختفاءات . فزوجي بتبخره قد حمل معه ، كما يحمل النجم المذنب ذيله ، كل الجو الذي كان يكوِّن وجوده ؛ فمنه لم يبقَ إلاَّ أنا ، وكنت ، أنا ، قد ’حرمت من هذا الهواء الذي كنت أستنشق فيما مضى ، ولا أحد يستطيع أن ينفخ هذا الهواء في مكانه . ليس لأن حبنا كان كذا أو كذا (< حبنا هو تعبير متعب >) ولا لأننا كنا ، أصلا" ، فريدين : لم يكن زوجي بالنسبة إليَّ يستحيل الاستغناء عنه وكذلك الأمر بالنسبة إليه ، وإني الآن على يقين من أننا كنا نشبه الناس جميعا" ، إذا كان كل الناس يترددون بعد ثانية من السكوت في أن يقولوا < حبنا > . ولكن الفسحة التي تركها بقيت خالية ، والفجوة في الكون منفغرة ، هنا تكمن الفضيحة ، فلا أعرف قانونا" يستطيع أن يصفها ، ويسدها أو يقرها .

خرج مستشار مجلس البلدية ، وغمغمت زوجته باعتذارين، ثم أمسكت بسرعة المعطف الذي بسطته لها أمي الملتفة بثوبها المصنوع من السيليكون على شكل مثقب . حدثت حركة أدت إلى نتيجة بطيئة . فكنت أرى فعلا" ، في عودة المدعوين إلى الجلوس بكل هدوء ، وفي بشاشتهم في استعادة شوكاتهم وسكاكينهم ، وفي قبولهم الخمر ، وفي تبسمهم من كل

ما جرى ، كأنه غيم أزيح عن شيء ما . أخذ الهواء حولنا نقاء" غريبا" ، مثل تلك السماوات العارية التي لا تدفئوها الشمس ، والتي يدرك المرء تحتها أن الزرقة هي لون الفراغ . حين لم يعد فيها شيء معلقا" ، حين سكن الهواء سكونا" كاملا" و أمسى مضيئا" بين كل كرسي وكل جسم ، سقط الصمت كما تسقط البلاطة . حينئذ 'فتح الباب الداخلي ببطء شديد (بدأ الزمن يتمدد)، ظننت أن مستشار مجلس البلدية قد عاد ليعتذر أو ليقتل المدعوين كافة ، الذين كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض منزعجين ، يسعلون سعال ضيق ويبصقون متبرمين ، بينما كانت أمي تأخذ شهيقا" ، كي تتكلم بإسهاب عن الصمت ؛ ظننت آنذاك أنني الوحيدة التي أرى زوجي يدخل ، ولكن الصرخة التي أطلقتها حماتي قد كذّبت هذه الفرضية . بينما كان الضيوف يتزاحمون حولها وقد أغمي عليها ، بدا زوجي يتردد ، متأرجحا" على العتبة . أحسست بوضوح تيار الهواء القوي الذي كان يتقدمه ، ومع ذلك ، لم يتحرك أي عاكس نور ، وبقي غطاء الطاولة ساكنا"، وإذا افترضنا أن الانتباه قد تحول لثانية عن حماتي ، فلا أحد قد طلب إغلاق الباب . كان زوجي ينظر إليَّ ، نظرة غريبة ، كما على تلك الصور حيث بدا يحدق في نقطة وراء العدسة . حاولت أن ألتقط نظرته ، أن أتدخل قبل أن تنزلق بعيدا" جدا" نقطة الهدف التي كانت عيناه تبحث عنها . تقدمت خطوة إلى الأمام ، لم يتحرك زوجي . مددت يدي برفق كبير . كان يفصلنا حوالي عشرة أمتار : عرض الطاولة ، السجادة ، الرف المثلث الشكل في المدخل، مشجب . بدأت أهيئ العملية ببطء . لم أكن أفارقه بالنظر ، وظننت أني هكذا أمسكه

هنا ؛ مثل صورة تبيناهـــا الآن فـــي ســـجادة ، فبـــإخراج الخطـــوط والقطب من تشابك الصوف ، يظهر وجه لم 'ينســـج قطعـــا" فيـــها، ونضيعه إذا ما رمشت عيننا . من هذه الأشكال فـــي الســـجاد (فـــي الملاط وفي ورق الجـــدران ، فـــي عقـــد الخشـــب ، فـــي تقلبـــات الغيوم) كان زوجي يستمد وجوده إلـــى حـــد مـــا . كـــانت تقاطيعـــه تتبدد ، ومعطفه يتناثر زغبا" حوله وشعره يسبح فـــوق رأســـه كأنـــه رذاذ ؛ وجلد وجهه قد 'رش بطبقة رقيقة وبيضـــاء جـــدا" . انزلقـــت بتؤدة حول الطاولة ، أحاول جاهدة ألاَّ أحيل بصـــري عـــن تقـــاطيع وجهه ؛ كانت ذاكرتي تسعفني بقدر عينـــيَّ . كـــان عليـــه أن يبقـــى هنا ، ثانية أخـــرى ، حتـــى ألمســـه ، ثانيـــة أخـــرى بـــالرغم مـــن شكي، وهذا ما يكوِّن وجود زوجي ، فيما بـــدا ينكـــر علـــى الزمـــن إمكانية إطالة بقائه ، وعلى المكان إمكانيـــة إعطائـــه شـــكلا" . كـــان مصباح في الخارج ينفذ ضوءه من خلاله كمـــا تنفـــذ الشـــمس مـــن تحت الضباب ، في الصباح ، حين الطقـــس بـــارد ؛ كـــانت عينـــاه اللتان لا تنظران إليَّ ، اللتان تنظران من خلالـــي قـــد امتلأتـــا مـــن هذا الضباب . كان زوجي ، بالرغم من لـــون وجهـــه المضـــيء، ذا مظهر قلق وكأنه بـــاهت .

درت حول الطاولة . وأخذت في اجتياز الســـجادة . لـــم يكـــن نظري يكفي لإدراكـــه ؛ كنـــت أريـــد أن أضمـــه بيـــن زراعـــيَّ ، فيستريح ، ويستند علـــيَّ ، تعبـــا" ، مثقـــل الـــرأس ، ونعـــود إلـــي البيت. أعده أن أفعل كل ما يريد . ســـأحبه طـــوال حيـــاتي . أهتـــم به . أقلق على صحتـــه ، وعلـــى عملـــه ، وعلـــى عزلتـــه وعلـــى الفراغ الذي ربما يشعر به . سأطلب منه أن يصـــف لـــي المنـــازل،

والشوارع ، وينابيع المياه ، والسماء ، وما كان قد حلم بما سيكون أطفالنا . سنتحدث مختلف الأحاديث . لن نخاف أن نبكي. سنرى الألوان عينها ، الأشكال ذاتها ، وسأكف عن التساؤل إذا كان زوجي (إذا كانت القطط ، والطيور ، والأسماك والذباب ذو العيون المتعددة) يحس ويرى مع ذلك ما أشعر أنا به وما أراه . كانت السجادة تسير ببطء تحت قدميَّ ، وزوجي واقف على العتبة ، لا يتحرك ، على مرمى يدي ومع ذلك فهو بعيد عني ، متراجع دوما" في المسافة الصامتة عينها . كانت الحبكة تستطيل ، والرسوم تتضخم ، وتتعقد ، وتختلط بعضها ببعض ، فكنت أتبع خطا" أزرق يلتف فجأة فوق خط أخضر ، ولم أكن أعرف هل أنا ضحية سحر 'نسج مع الصوف، أو عرضة نفاد صبري للحاق به ، أم شيء ما بيننا ، ربما أرخى خيوط الزمان والمكان . نطقت اسمه بصمت ، وقد خفت أن أضع فيه صوتي ؛ وجب على كل شيء أن يسكت ، وأن يبقى على الصعيد ذاته من الهرج والمرج على شكل فقاعات، وعلى غمغمات تبقبق وعلى غموض ؛ فلا شيء يطقطق ، ولا يصفق باب ، ولا 'يلفظ اسم ؛ وإلاَّ يطير زوجي كطائر قد قطع المحيطات .

لم يبقَ إلاَّ باع للوصول إلى المشجب ، مسافة عرض أرض الغرفة ، خطوة حتى المدخل ، سأعانقه ، وبضربة من رجلي أغلق الباب ، فيكف تيار الهواء عن التهديد ببعثرته في مهب الريح . ظننت أني وصلت إلى هدب السجادة . تراجع زوجي . تحرك شيء ما معه ، انحسار هواء ، فانتقل من مكانه

كما تنتقل الصور على شاشات الحاسب القديمة ، فتترك ذيلا" في الجزيئات الضوئية ، والانطباع يبقى قليلا" بعد انقطاع الاتصال ؛ بريق يتجمع على ذاته بمجرد أن تتوقف الحركة . إلاَّ أن زوجي تابع اهتزازه ، فتعكر ظهوره واختلطت التقاطيع ، كأنه أخضع إلى تحكم في وجوده قد اختل . كان عليَّ أن أعيد رسمه ، أن أسجنه ، أن أصغره ؛ أن أمسكه هنا أخر الأمر ، أن أضغطه في جسم واضح تمام الوضوح ثم أخرجه من القالب كما صار ، كي يكف عن الرفرفة في مكانه مثل الهواء الذي يطير على شكل غبار فوق الخرق حين 'تنفض . وصلت إلى زاوية المدخل ، فانتصب المشجب في وضعية قتال المحسَّة ، والكلاليب ، والمشاجب والأقواس التي امتدت لتجعلني عوراء ، قلبت المشجب ، فحدثت ضجة عظيمة ، صرخت حماتي من جديد وانفجرت فقاعات ضخمة على شكل أصوات متنوعة في أذنيَّ . استطعت أن أمسك بسرعة كالومضة ، نورا" بقي في أصابعي وفي عينيَّ : ذيلا" مذرورا" ، ثلجا" من الهواء،، وأحسست ، بوضوح تام ، كثافة شيء ما كان يلحق زوجي ، وينتزعه مني ، ويفرغني ، أنا ، من ماهيتي (داخل جوفي ، وقد انطوى بعضي على بعضٍ ، وتوقف الخفقان) .

(١٠)

قال أحدهم : أغلقوا هذا الباب . كنت أتفحص ظلمة السماء فوق الحديقة التي كانت أشد ظلمة أيضا" ، في شقوق الأغصان . تناهى إليَّ أزيز ما ، نفحة جناح قد انتثر ، شدتني جاكلين من ذراعي قائلة : حماتك . أم زوجي ، شاحبة شحوب زوجي ، كانت ممددة على الأريكة ، يروحون عليها ، ويسقونها، كانت أمي تقفز قفزات صغيرة ، وقد التصقت سماعة الهاتف بأذنها ، وراحت تومئ لي بإشارات كي آخذ نصيبي من هذه المهسترة التي يعتبر الجميع أنني سبب جنونها . صحبتنا جاكلين نحن الاثنتين إلى بيتينا في الضاحية . لا أدري لماذا لم أدخل فورا" ، تظاهرت بأني أفتح باب بنايتي أمام ناظر صديقتي اليقظ ، ثم ، ما إن دارت سيارتها في المنعطف ، حتى سحبت مفتاحي وابتعدت سيرا" على الأقدام . مشيت طويلا" . رجعت إلى شاطئ البحر . لم نقم أنا وزوجي بهذه النزهة الطويلة من البيت إلى البحر إلاَّ مرة واحدة . حدث ذلك في يوم من أيام الصيف وكنا قد سبحنا ، وطوال طريق العودة كانت تفوح منا رائحة البحر ؛ وتحول الغبار بين التلال إلى طريق ’معبدة ، وكان الملح يشد وجنتينا ، والشمس الحمراء تشقق جلدنا . أتذكر نضخ الماء علينا حين عدنا ، وكأننا نشرب من مسام جلدنا . لا أذكر إن كنا مارسنا الحب . إني أتذكر الأحداث ، ولكن الحب لم يكن حدثا" ، بل شكلا" خاصا" للزمن ، ’يترك و ’يؤخذ ثانية ، أو بالأحرى كان يتركنا ثم يأخذنا من جديد : زمن يبدو ظاهريا"

متحدا" ولكنه ربما كان يتبع منعطفات وانحناءات ، شأنه كالسنة في حركتها ، ثورة حول شيء ما ، كنا نقترب ثم نتراجع ببطء من نقطة أشد حرارة، وأقوى حساسية ، وأكثر مركزية ، وفق الفصول ، الملتهبة أو المنكمشة . إنني لا أتذكر الليالي بنوع خاص (ربما أماكن ، أو غرف فنادق ، ونادرا" شواطئ سباحة : وقائع 'حذفت) ؛ إني أتذكر فترات ، مرور أشخاص ، روائح ، رطوبة ، توتر أو تجنب ، تباعد وتقارب ، استرخاء ويقظة ؛ تتكرر دائما كثرت أم قلت ، ولكن الأكثر أو الأقل هو الذي يعطي الإيقاع للذاكرة أمام البحر الليلي ، أدركت أنه زمن الضياع. فذكرى عشاقي كان زمنا" يمكن التأكد منه ، كنت أستطيع أن أعيشه من جديد ، أن أخرجه ، وأن أعجنه ، وأن أستخلص منه ثانية المتعة واللذة ، وأفرك به ذاكرتي . أما زمن زوجي فقد كان زمنا" ممتدا" ، كان خطا" واحدا" من الزمن لم أكن أجده في تتابع الذكرى ، وإنما بدا كما لو تمت حياكته في نسيجها ، يستحيل فكها والتعرف عليها .

كانت كتلة البحر السوداء تضرب صدغيَّ . وثمة حركة بكليتها تتبدل فيَّ ، شأن انبجاس يشغل الفراغ فتتحول مباشرة إلى حنين مرعب لأنه حنين إلى لا شيء . كان هذا الشعور خوفا" وليس شهوة ، الخوف من أني فقدت نقطة هذه الشهوة . كانت الشهوة فسيحة واسعة إلى أبعد الحدود ، فانتظاري صار نوعا" ما شاملا" ، حتى إني شعرت في جسمي وفي كل ما يكوِّنني بنوع من الانفكاك ، من التحليق الخاوي والذي لا هدف له ، وهذا ما يحدث في الكوابيس ، حين تظن أنك تقترب من

النقطة التي تستمر في التراجع إلـــى منتصـــف المســـافة ، وتـــتركك هناك ، وقد جن جنونك ، غير قادر أن تدرك أنك لـــن تصـــل إليـــها .هل يمكن أن لا يعود زوجي أبـــدا" ؟ كـــانت الأيـــام قـــد مـــرت ، ولكن الفكرة بقيت جديـــدة ؛ ألـــم يعـــاودني باســـتمرار ، و يشـــغل الحيز كله : ودائما" بالطريقة التامة عينـــها ، فـــي موضـــع الذكـــرى ومكانها ، كنت أتـــألم .

جلست في إحدى ثنايا التل وأشـــعلت ســـيجارة . و كنـــت قـــد استعدت هذه الحركة ، إنها إحـــدى عـــاداتي . كـــانت الشـــقة آهلـــة بحركات مزدوجـــة ،'شـــطرت هـــذه الحركـــات شـــطرين بغيـــاب زوجي ؛ فالتدخين كان يفتتح زمنا" آخـــر ، إلاَّ أنـــه يســـتحيل علـــيَّ كذلك أن أعيش فيه . توقف الزمـــن فلـــم يعـــد يجـــري . ســـيجارة تلتها واحدة أخرى ، بدا تنفسي يعود دائما" إلى النقطـــة ذاتـــها . لـــم أكن أرى إلاَّ البحر ينزل بطيئا" تحت سماء ربمـــا بـــدأت تنجلـــي . هناك ، عن بعد ، أضرم مجمـــر مـــن جهـــة الأبـــراج المصفحـــة ، كان الهواء يحمل بعض الصيحات . فســـواء أنمـــت فـــي العـــراء ، و 'قتلت ، أو ركضت أرمي نفسي لأغرق في لـــج البحـــر ، أصبـــح ذلك احتمـــالا" واردا" ، صيغـــة ثابتـــة للانفتـــاح ، قـــد يكمـــن هنـــا مخطط ما ، قرار عليَّ اتخاذه .كما علي تنفيذه أنـــا بنفســـي . كـــانت أسود البحر تغط في النـــوم ، وقـــد تكومـــت كدجاجـــات ضخمـــة . والقمر سقط من الجهـــة الأخـــرى للكـــرة الأرضيـــة ، والأمـــواج الملتفة تصعب رؤيتـــها إلاَّ علـــى ضـــوء النجـــوم الأخـــيرة ، كـــان هديرها هو الذي يـــذزر ، نتفـــا" ، بـــرذاذ الزبـــد الأبيـــض . كـــان البحر في الليل أضخم مما رأيـــت حتـــى الآن ، لا حـــد لـــه تحـــت

سماء كان يبتلعها ؛ كان عليَّ أن أفكر لأحدد مكان النجوم ، لأضع حدا" لارتفاع هذه السماء . كان من دواعي اطمئناني أن يكون البحر فسيحا" هكذا ، كبيرا" جدا" يستحيل فهمه . كان ممكنا" قبول ذلك ،ألاَّ أفهم البحر . يمكن أن نقص على أنفسنا حكايات وأن نستسلم لهدهدته ، ونردد بأنه ذاكرة ، وبأن كل ذرة من ماء البحر في البحر كانت جزيئا" من الذاكرة الضائعة ، والتي وجدت من جديد هنا ، فتجمعت ثانية هنا ، بين الضفاف ، تسبح فسيحة واسعة بقدر ما نأمل .

أخذت سيارة أجرة للعودة . بزغ النهار من طرف البحر المعاكس لجهته الغربية . ظهرت البناية بوضوح تام ، كتلة سوداء لفها النور ، واجهة لا 'ترى في الظل . كنت أتبين فقط ، من نوافذ شقتنا ، بريق نور خافت ليلي لأني لم أكن قد أغلقت المزاليج ؛ فبدا ذلك كعين، عين واحدة يقظة تسهر . جلست على الرصيف المقابل . كان الشارع ضيقا" والجدار منحنيا" عليَّ. كانت نوافذنا تلمع لمعانا" خافتا" متقطعا" ، فبدت كخط أزرق داكن فوق حافة . كانت الهالة التي نفذت في ظهر البناية تزيدها عتمة ، وبدا لي أن هذه الهالة ستحملني بين إصبعيها ، وركبتي على الأرض ، وسترفعني حتى عينها . كانت الشمس اللآمبالية تتابع صعودها . 'فتحت نافذة شقتنا في الطابق الخامس ، فنفذ ضوء خافت إلى الواجهة ، كأنه خضاب يعوم حول جفن . وقف شخص اتكأ بمرفقيه يدخن سيجارة ، كان نفسه الرمادي يذوب في اسوداد الطوابق . نهضت واقفة . بدا خيال آخر يرتسم بجانب الخيال الأول ، قريب جدا" منه . كان

ولا شك صخب محادثة أسمعه الآن ، يتناهى إليَّ بشقوق في الواجهة . صعدت . كانت ساقاي لا تطاوعانني . كان السلم ينبسط تحت قدميَّ دون أن تتتابع الدرجات . بدا لي أني أصعد منذ زمن طويل ، ولكني أغوص مع ذلك عالقة بطابق أرضي لا يمكن التعرف عليه ، أو أنزل إلى الأقبية ، حيث كانت تنتظرني أشياء غريبة تحيرني أكثر . توقفت ثانية واحدة ، متقطعة الأنفاس . كان الفراغ في قلب السلم ، الملتف على شريط الدرابزين ، قد فقد شكله العمودي . واتخذت الجدران انحناءات جديدة ، كما لو كانت الدرجات ، بالرغم من التفافها على ذاتها ، تنطوي داخل محور حلزوني ؛ كما أن شكل مسقط الدرج كان حلزونيا" أيضا" ، وإن لم أستطع التأكد من ذلك ؛ بدا الدرج الذي أصعد يتتابع بانتظام ، ولكن السلم الكبير الذي يحويه كان يصعد ويهبط علي شكل كتل ، وقد استحال عليَّ أن أعرف أين كنت أذهب ؛ ربما كان هذا السلم الثاني يخضع لدوران السلم الثالث الكبير ، وهكذا دواليك ، ولا أعرف إلى أي طابق سيصل أو إلى أي عمق سينزل ، ولا أي اتجاه يأخذ . في شقتي الخالية ، حاولت أن أخط رسوما" كثيرة تعبر عن هذا الإحساس الذي يستعصي على فهمي ، وإن أنجح في أن أرسم ما يقرب هذا الشكل :

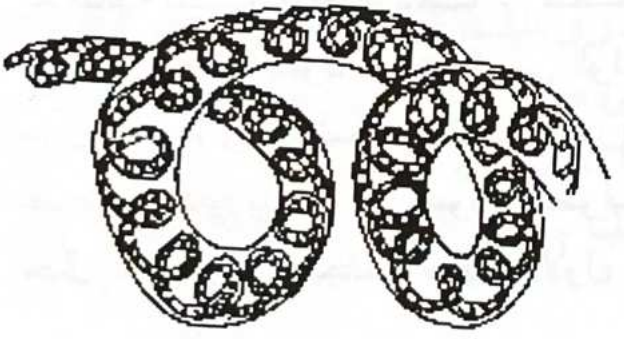

كان الضوء الكهربائي يؤلم عينيّ وقد زاد حدته عاكس النور المحرشف . ما الوقت الذي يلزمني لأصل إلى مكان ما ، إن كان علي أن أصعد السلم المثبت وسط القفص المغلق ؟ رحت أسير في الشقة . كان البساط مغطى بأوراق دعكت فصارت كتلا" ، فرحت أخبط برجليّ مما أثار زوابع ثلجية تختفي سريعا" . لم أعثر على أحد في شقتنا المؤلفة من غرفتين، ولا في المطبخ ولا في الخزانات ؛ لا يمكن لأحد أن يوجد هنا ، لا زوج من الأشباح ، ولا مسخ أو وحش ، أو خدعة أو مقلب ، لا شيء .

بقيت مدة متمددة على السرير . كانت المصابيح تتدلى شاقوليا" . أحسست الجدران تميل من جديد ؛ كان السرير يصعد نحو السقف ، والسقف ينحدر نحو أصيص اليكّة الذي كان ينمو وهو يئز ؛ كانت الفسحة بين السرير والنافذة تتقلص حتى إن الشارع ظهر كأنه يبدأ تحت أغطية سريري ، وتقسيم المدينة التربيعي ينبثق مني كشبكة . اقترب السرير كثيرا" من النافذة حتى إني ظننته سيشق الزجاج ويحملني معه ، فتسبح أغطية السرير في الهواء ، وأبقى متمسكة بالوسادة . كانت الشوارع العريضة تمتد حتى السماء السوداء ، وأشرطة الفوانيس المزخرفة تنزل من نوافذي المضاءة ، كانت معالم المدينة تتقطع على شكل نقوش تبرز على الأفق . كنت أشعر بضغط الهواء تحت وسادتي ، يهتز تحت السرير ، وإذا ما بسطت ذراعيّ، استندت على سرعة تيارات الهواء ، فأستفيد من الرياح الصاعدة ، ومن الرعشات اللطيفة فأستطيع أن أميز الهواء

الحار الذي يصعد من الهواء البـــارد الـــذي يـــنزل ، وفـــي بـــاطن راحتيَّ ، تحت ذراعـــيَّ ، تحـــت بطنـــي ، وهـــو يمســـك أصـــابع قدميَّ ، وينساب بين أصابعي ، أشعر حينئـــذ بخـــط طـــيراني . فـــي الطرف الآخـــر ، المشـــرق ، كـــان هنـــاك البحـــر . اســـتطعت أن أتخيله بمجرد النظر إلى السماء ، البحر ، وهو يخفـــق فـــي أســـفل البناية ، فأسمع نفحة ارتداد المـــوج فـــي البـــهو ، البـــاب يتحطـــم ، والأصداف تلتصق رويدا" رويـــدا" فـــي الحجـــر (كـــانت ســـيارات الأجرة تلقـــي المرســـاة ، والزبـــائن بالمعـــاطف الواقيـــة يتخطّـــون النوافذ ، والخبازون يحملون من الأقبية طحينـــا" مثقـــلا" بـــالقريدس الشبعان) . وجب طوفان ، تراجع تلال ، ذوبـــان جبـــال جليديـــة ، بدا لي أني أخيرا" قد أنسكب ، شيء مـــا فـــيَّ قـــد يستســـلم ، ولـــن يبقى أمامي إلاَّ أن أعوم مـــع أســـود البحـــر . كـــان هـــواء خفيـــف يجعل زجاج نوافذي يرن . أدركت أن الشـــمس لـــم تشـــرق : إمـــا لأن رسمي قد استغرق وقتا" طويلا" مني لذا عندما عـــاد الليـــل لـــم أكن قد تابعت دوران الكوكـــب ؛ أو علـــى العكـــس لـــم تمـــضِ إلاَّ بضع دقائق منذ صعودي . هدأ ارتـــداد المـــوج ، وشـــيء مـــا فـــي المصابيح قـــد انطفـــأ بـــهدوء . اســـتدرت نحـــو النـــافذة ، ورأيـــت زوجي ، منتصبا" على الدرابزيـــن . نـــهضت لأفتـــح لـــه ، فَخطـــا على الحافة ، خلع معطفه الذي أخذته من يديـــه . قلـــت لـــه بـــأنني انتظرته طويلا" . لم يجب . بدا وهو جالس علـــى حافـــة الســـرير ، بحذائه على البساط ، أنه ينتظر شيئا" ما ، كما لـــو أن علـــيَّ أنـــا أن أستقبله ، أن أسأله ، لا أدري ماذا ، هل قام بســـفرة جيـــدة . مكثـــت واقفة ، أسوي معطفه ، أبحث عـــن كلمـــة ، عـــن فكـــرة . أخـــيرا" وضعت معطفه على أعلـــى الســـرير وجلســـت . لبثنـــا صـــامتين .

كنت من حين إلى حين أجرؤ أن أنظر إليه خلسة، ولم أكن أعرف إن كان عليَّ أن أفتح ذراعيَّ ، أن أداعبه ، أن أتمتم عبارات الندم ، والعتاب ، والمواعظ ، من هذه الكلمات التي لم نكن نلفظها البتة ؛ أم كان عليه هو أن يقوم بذلك . هل كان عليَّ أن أتمدد وأنا أفك أول زر ، وأن أرفع أول كم ؛ أو ربما أدق على الجدران ، وأخبط بقدميَّ ، وأرمي بالأشياء عرض الغرفة. فالحق أنني ، وأنا أنظر إلى زوجي خلسة ، زوجي الذي أعرفه منذ سبع سنوات ، زوجي الذي نظفت وإياه معا" ، وندبت أمامه حظي التعس ، وخدَّشت ظهره ، وقبَّلت لسانه ، وتشاجرت معه لشراء الخبز ، لم أعد أعرف ماذا أفعل ، ولا ماذا أريد . فبالإضافة إلى انطباعي الأول الغامض والمبهم ، خيم الآن نوع من الثقل ، ثقل غير مألوف ، فبدلا" من أن يثبت صورته ويوطدها ، جعلها تزيغ وزادها ميلا" وانحرافا" : كان زوجي ساكنا" أو ، كما كان لتوه ، مغطى بمعطفه ، ما زال زوجي يبدو زوجا" مقبولا" ؛ ولكن إذا ما حرك أقل جفن ، إن ما كان يثبته هنا على كل حال بدا يثقل في مركز شخصه ، يكثف مادته ، يجمعه في نقطة واحدة مركزية تتركه خاويا" فعلا" على الأطراف (حيوانا" أشعر يعرض بعكس الضوء ، وهالة شعره التي لم تعد ترسم إلاَّ محيطا" خارجيا" له ، تكشف عن جسم هزيل حتى إنه يثير السخرية ؛ عينان تقطعهما الانعكاسات ــ تلك التي يطلق عليها ، في ساحات الاستراحة في المدرسة ، اسم عيون القطط (وهو نوع من الحجارة الكريمة) وقد تركت في الشمس على لوحة تلتمع ، والتي يحرك ظلها الملون الفروق الطفيفة ليخلق عيونا" واسعة جدا" وهمية ، مع

قلب صغير جدا" كتيم لا ينفذ الضوء إليه يشكل حصيلة كل ألوانه ؛ صورة من السينما تعرض بسرعة متباطئة وقد صورت بزمن بطيء جدا" ، الشريط المصور يتجاوز الحركة ، و قد يقال إنه يسبقها ، ويتوقع ما سيتبع ، كيف سيقع الجسم المضروب على الأرض ، وهو يخط في الهواء انحناءات سقوطه ، وتدرج الأجسام التي تقع ؛ فلنقل موجة ترتفع عاليا" ويخترقها شعاع ، تتلون المياه بالأخضر الفاقع حتى إنها تتحول إلى بياض ضوء ، فلا نعود نرى الموجة ولا الشمس ، وإنما مجرد غياب يتحرك حول مركز دوران ، و موجة إثر موجة فلا نعود نرى البحر) . كان زوجي ، وهو جالس على السرير كما كان ، ببنطاله الذي أعرفه جيدا" ، بحذائه الملمع الذي يدوس به البساط ، بربطة عنقه المفكوكة قليلا" ولحيته التي نبتت في النهار ، بالضبط كما كان قد خرج ليشتري خبزا" ، كان زوجي يؤلم عينيَّ ، وينتشر بشكل كبير حتى خيل إليَّ أني أستطيع بسهولة أن أطوقه بيدي ، وأن أقول له مداعبة : إني هنا. إن ضمه بين ذراعيَّ بدا لي لأول وهلة أنه حل مسالم وسهل ، فلقد كان محيطه إلى حد ما محددا" وإن بدا مضمونه يطفح عنه أو يتقلص بشكل متناوب ؛ ولكني خفت إذا ما تمسكت به أن أكتشف أنه ليس هنا ، وأن أجد نفسي أضم قبضتي في اندفاع نحوه ،لأقع على مكثف متحجر ممثل له ، مادة أ.د.ن. كشبح ، خرق مفتولة لامعنى لها أسرع لأضعها على الرف ، لمسح الغبار . رحت أتساءل أي شيء يشبه زوجي وهو عارٍ . كانت ملابسه (قميصه ، ربطة عنقه المفكوكة قليلا" ، بنطاله ، جواربه ، وحذاؤه) تضع مصفاة بين

مادته وبيني ، فإذا خضعت الملابس هي أيضا" إلى صباغ جزئي (بهت لون القميص ، وتعثر لون ربطة العنق ، تموج لون البنطال ، وتآكل الحذاء من لون انعكاساته) فربما قاومَت الاختفاء بشكل أفضل . ماذا كان قوام جسم زوجي؟ ماذا كانت كثافة جلده الحالي ؟ أية رائحة كانت تنبعث من هذا الجلد ؟ وإذا اقتربت منه ، إذا توصلت إلى أن ألتصق به ، فماذا سيكون رد فعل عضوه التناسلي ؟ أما زال له عضو تناسلي؟ ألا يكفي أن أجلس على ركبتيه كما كنت أفعل في الماضي ، وأن أضمه بقوة بين ذراعيَّ وأسحق نهديَّ على صدره حتى أشعر بانتصابه وامتداده ؟ كان بودي أن أقبِّل هذا الجلد ؛ وكنت أريد أن أداعب ما لم تنجح ثيابه في إخفائه . لم أرغب في زوج لن أستطيع ضمه بين ذراعيَّ .

نهض يقف ببطء . كانت حركته بطيئة جدا" حتى إني لم أرَ إلا وكأن الحيز ينطوي، كما لو كان جسمه وهو يقف قد غير الأبعاد ليجد فيها مكانا" إشكاليا" . بدا الحيز يتجمع ثانية حوله ، يرسمه من جديد رسما" تقريبيا" ، يتقبله على الطول ، والعرض ، والعمق ؛ إلاَّ أن الجدران بدت تتردد بالنسبة للوضعية التي تتخذها . فما كان باقيا" ، كأثر نيزك ، استمر يعوم خلفه ، مشكلا" في الهواء الأثقل منه نوعا" من لمعان يشع من الحرارة ، والذي يمكن أن يشبه أجنحة أيضا" ، أو يشبه محرك صاروخ ، أو مروحة طائرة ، أو مظلة طيار ، أو أزيز يعسوب ، أو محرك مجز للعشب ، أو أي شيء آخر قابل أن يوضع على الظهر ويمكن أن يطير . فحين شعرت بأن زوجي يحيطني بقوة

يديه وحدها ، هاتين اليدين غير الماديتين ، وقد أمدني بدوري بهذه الطاقة (بمعنى أدق ، لم يمسني ، وقد جعله الاقتراب غير مرئي تقريبا" ؛ ولكني كنت أشعر به : في داخلي كليا" في آن واحد ، وحيث لا أستطيع الوصول إليه) ، حين ذبت هكذا في ضبابيته ، تحسرت على الوقت الذي كنت أستطيع فيه جعله يلفني بذراعيه دون أن أطرح على نفسي أي سؤال ، ولكني أدركت أن قوة مائتي طائرة ورقية متلهفة قد شحنتني .

لم أفهم مطلقا" إذا كنا قد اجتزنا النافذة ، أو إذا كان زوجي قد فتحها لنستطيع المرور. ولكن حين وجدت نفسي على سريري ، وحدي ، مرصعة بشيء ما قد حدث فعلا" (أتذكر خاصة ، بنوع من الحرج ، صوتي المتوسل كي يعلمني أن أطير) ، و مشحونة أيضا" بهذه الطاقة التي تكيل لي الضربات بمجرد أن ألمس المفرش (الحائط ، الباب ، الطاولة الصغيرة قرب السرير حيث بقي معطفه موضوعا") ، حين أجد نفسي وحدي في ضوء الفجر المتلعثم ، وأفكر وأنا عاجزة ببساطة عن إعداد قهوتي ، وعن مرافقة أمي حين رحيل مركبها ، وعن العودة إلى المكتب لأكتب هذه القصة ، إني أعرف فقط أني توقفت ، من تلك اللحظة ، عن أن أتساءل إذا كان زوجي (إذا كانت القطط ، والطيور ، والأسماك والذباب ذو العيون المتعددة الألوان) يحس ويرى مع ذلك ما كنت أشعر به وما أراه .

" اختفى زوجي . عاد من عمله ، أسند محفظته على الحائط ، سألني إن كنت قد اشتريت خبزا" . كانت الساعة حوالي السابعة والنصف ."

لن يعود الزوج الذي لا وجه له .

ستنتظر زوجته وهذا الانتظار سيزعزع كل شيء ، فيمتد الاختفاء على الحياة بكاملها وعلى الأشخاص الذين يحيطون الراوية ، كما يمتد على جسمها .

" الكتابة تعني أن يكون الإنسان بين عالمين، حيث ليس من يقين ولكن كل شيء ممكن، حيث تجري الأجسام السائلة كما تسير الأحاسيس والمشاعر" .